أحبة الضاد
تصميم: همس الجنة
دموع القدر
رضوان زعيم

دموع القدر

رضوان زعيم

تصنيف العمل: رواية

المؤلف \ ة: رضوان زعيم

تصميم الغلاف: همس الجنة

الاخراج الفني: سها منصور

دار احبة الضاد للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة:

سلمى جمال هدير إبراهيم

أحبة الضاد

الفصل الأول

(محطة العودة)

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

على وحشة ملفوفة بأسلاك الوجع الحاد، مطوية مرمية في أحد أخاديد اليأس المظلمة، ترتقب الأرض عودة آدمها الذي غرَّبته المعاصي والذنوب، وأغواه طول الأمل، وشوهت صورته شهوات الدنيا، فنسيَ ذاته، وهجر جنته، وأخلف وعده، وضيَّعَ الكثير من إنسانيته، ونزف الكثير من ضميره، مع كل ذلك لازالت تنتظره، فهي تعلم أنه كما تاب في المرة الأولى سوف يتوب للمرة الثانية ولمرات عدة.

في صيف أغسطس باكرًا وقبل أن ترسل الشمس خيوطها الذهبية آذنةً بانطلاق يوم جديد ووقت جديد، وساعة ذات عقارب جديدة، كعادتها تفتحُ جايدن عيناها الخضراوان مستيقظة على جنبها الأيسر

بتكاسل على صوت وحركة قطتها بيلا البيضاء اللون الكثيفة الشعر وهي تلاعب وسادتها بمخالبها الناعمة، نظرت إليها نظرة معاتب ومحب في وقت سواء متبسمة لها، لتأخذ شهيقًا عميقًا مدلية يدها الناعمة نحو رأسها تلاطفها وتلاعبها وتضاحكها، قفزت بيلا من السرير مسرعة نحو باب الغرفة حينما سمعت صوت أم جايدن وهي تناديها لتتناول طعام الصباح كعادتها، ابتسمت جادين ابتسامة صغيرة واستدارت مستلقية على ظهرها تنظر إلى سقف الغرفة تتأمل وتفكر كيف ستقضي يومها هذا وهو أول أيام عطلتها بعد عام من الدراسة في كلية الطب، انتابها شعور غير طبيعي لم تعتد عليه، شعور مبهم يحصل أن يصيب

الكثير من الناس ليتجلى لهم بعد ذلك تأويله كأنه تجربة شعورية في رواية نسي كاتبها أو أنسته فصولها المتتابعة أن يجعل لها عنوانًا، شعور لا تدري أكان خيرًا ما فيه أو شرًا، وما لبثت حتى انتصبت واقفة كجندي في ساحة العلم على باب خزانتها تخرج البذلة الرياضية الخاصة بها، قد قررت ممارسة الرياضة لترفه عن نفسها بعض الشيء في هذا اليوم، فهي لم تمارسها منذ زمن، كلما تمل الأجساد من ضجيج الأرواح التي بداخلها تحاول الحركة في أي مكان كمحاولة للهروب أو ربما للتهدئة أحيانًا، وبثوب رياضيٍّ أزرق ليليٍّ اللون يأخذ مقاسها وحذاء أبيض رياضيّ هو الآخر وربطة شعر بني اللون قد تدلت مثل ذيل

حصـــان أصـــيل كثيـــر الحركـــة تخـــرج مـــن غرفتهـــا مشـــرقة أنيقـــة الطلعـــة، تســـلم علـــى والـــديها قـــرة عينيهـــا وأجمـــل مـــا تملـــك فـــي الحيـــاة، وعلـــى عجـــل اســـترقت مـــن مائـــدة الطعـــام كـــأس الحليـــب وشـــربت منـــه جلـــه طالبـــة مـــن والـــدها الـــذي يشـــتغل كأســـتاذ تـــاريخ فـــي إحـــدى الجامعـــات الإســـبانية أن يعيرهـــا ســـيارته لتـــذهب إلـــى القاعـــة الرياضـــية المطلـــة علـــى الســـاحل الإســـباني، وبكـــل حـــب ورضـــا قـــدم لهـــا الوالـــد مفتـــاح الســـيارة داعيًـــا لهـــا بقضـــاء وقـــت ممتع وكذلك أمها أوصتها بقلب الام الطيب:

_اعتنـــي بنفســـك يـــا ابنتـــي وحـــاولي أن تعـــودي باكرًا كي نتناول طعام الفطور مع بعضنا.

فقالت جايدن بكل سرور:

_نعم يا أمي، سأحاول العودة باكرًا لا تقلقي على.

ثـــم خرجـــت مـــن المنـــزل متجهـــة نحـــو مـــرأب السـيارة، ركبـت السـيارة ثـم نظـرت إلـى المـرآة أعلاهـــا، بـــدا لهـــا وجههـــا متبـــدل القســـمات، مبعثـــر رونقـــه، ضـــال الوجهـــة كخارطـــة ضـــاع مفتاحهـــا، بـــوجنتين قـــد احمرتـــا تمامًـــا كلـــون الســـيارة، وحـــاجبين منكســـرين وجفـــن ثمـــل، انطلقـــت نحـــو القاعـــة الرياضـــية ولازال ذاك الشـعور ينتابهـا، يتحـرك فـي داخلهـا وهمًـا فـي كـل دقيقـة يأخـذ صـورة مـا، صـورة شـيطان مـارد تـارة، وصـورة مـلاك لطيـف تـارة، وتـارة أخـــرى طيفًـــا لا تفهـــم معنـــاه، تقـــود الســـيارة بشـــرود وســـهو كبيـــرين، ولمـــا قـــرب وصـــولها إلـــى القاعـــة نظـــرت مـــن نافـــذة الســـيارة متأملـــة جمـــال الســـاحل الإســـباني وروعتـــه، فغلـــب علـــى فكرهـــا وأملـــى لهـــا قلبهـــا أن تقـــوم بـــالجري علـــى

شـــاطئ البحـــر، ولـــمَ لا؟ فتجمـــع بـــين متعـــة الرياضـــة وجمـــال البحـــر، فغيـــرت وجهتهـــا نحـــو الســـاحل وقـــد انشـــرح صـــدرها وانكشـــف عنهـــا ذلـــك الـــوهم والشـــرود بعـــض الشـــيء، ولمـــا وصـــلت ركنـــت الســـيارة فـــي أحـــد مواقـــف الســـيارات، نزلـــت مـــن الســـيارة بحمـــاس وطاقـــة كبيـــرين كـــأن ذاك الشـــعور الـــذي انتابهـــا كـــان يريـــدها أن تـــأتي إلـــى هـــذا المكـــان، كـــان يريـــد منهـــا شـــيء مـــا؟! انطلقـــت تجـــري علـــى الشـــاطئ تتأمـــل البحـــر وتصـــغي لصـــوت الأمـــواج القادمـــة مـــن الجنـــوب، وتستشـــعر ذلـــك الجـــو اللطيـــف وتستنشـــق ذاك النســـيم العليـــل، والـــدقائق تمضـــي ودقـــات قلبهـــا تـــزداد فرحًـــا مـــع زيـــادة ســـرعتها واقترابهـــا مـــن ذلـــك الجســـم الغريـــب، رمقـــت بعينيهـــا جســـمًا غريبًـــا ملقـــى علـــى

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الشـــاطئ لـــم تعـــرف مـــا هـــو مـــن مســـافة بعيـــدة حتـــى إذا اقتربـــت منـــه كانـــت المفاجـــأة، كـــان جســـد إنســـان ملقـــى علـــى بطنـــه مـــنغمس وجهـــه فـــي الرمـــال بثيـــاب مبتلـــة علـــى الآخـــر، لـــم يكـــن ســـباحًا ولا ملاحًـــا فقـــد كانـــت عليـــه ثيـــاب مـــدني، قمـــيص أبـــيض وســـربال أســـود داكـــن اللـــون وحـــذاء قـــد ضـــاعت إحـــدى فردتيـــه لتكشـــف عـــن جـــارب رمـــادي اللـــون، وشـــعر أســـود كثيـــف شـــعثٍ بالرمـــال، أخفضـــت جايـــدن ســـرعتها مجبـــرة لا مخيـــرة واقتربـــت منـــه بخطـــوات حـــذرة تلتفـــت يمينًـــا وشـــمالًا وتنظـــر وراءهـــا متوجســـة، ولمـــا تبقـــى علـــى وصـــولها بضـــع أمتـــار رأت حركـــة لـــه، كـــان يحـــرك يـــده ورجلـــه بصـــعوبة كبيـــرة، كـــان كمـــن أنهـــى مراثـــون جـــري ليســـقط مـــن شـــدة التعـــب عنـــد خـــط

النهايــة، أو كمتســلق لجبــل قــد بلــغ قمتــه بعــدما نــال منــه الإرهــاق جهــدًا كبيــرًا، فوقفــت تنظــر مــاذا سيحصــل؟ لكنــه ســكن عــن الحركــة مــا جعلهــا تتــيقن أنــه مصــاب وغيــر قــادر علــى القيــام، تقــدمت نحــوه خطــوة ثــم تراجعــت بــأخرى لكــن كــان شــيء مــا بــداخلها يــدفعها للأمــام، كــان كأنــه إنســان مــا بــداخلها يناديهــا بصــوت بعيــد مشــجون يحثهــا علــى التقــدم، إنــه نــداء إنســان لإنســان، فاســتجابت جايــدن لصــوت إنســانها وتقــدمت نحــو ذلــك الجســد المبتلــى ونزلــت بيــديها وقــد لامســت إحــدى ركبتيهــا الأرض، تلامــس ظهــره بــبطء إذا بــه شــديد البــرودة كأنــه قطعــة جليــد صــلبة مــن القطــب المتجمــد ضــلت وجهتهــا فــي هــذا المحــيط الواســع ثــم مــررت يــدها نحــو رأســه

تحركه بلطف لتسمع تحت الرمال أنفاسه المتواترة المتوترة الباحثة عن جرعات أكسجين وسط تلك الرمال الكثيفة تبحث عن فرصة للعيش، قامت بسحبه من ذراعه وقلبه على ظهره، وهنا كان المشهد الذي جعل جايدن غير قادرة على الحركة، سكون الروح يعني سكون الجسد، تمعنت النظر إلى وجهه، تمعنت النظر إلى تلك الملامح العربية التي تشوبها بقايا رمال الشاطئ المالحة، كان مغمض العينين يحاول بالجهد فتحهما، أحست جايدن كما لو أنها لم تر رجلًا قط إلا في تلك اللحظة، أحست بوجود تلك الأنثى بداخلها، تلك الأنثى التي كانت تقرأ عنها في روايات "شكسبير" وتسمع عنها في أشعار "فولتير"، نعم تلك الأنثى

الخرافيـــة التـــي لا يمكـــن أن تكـــون إلا فـــي عـــالم طـــاهر معصـــوم ولا يمكـــن لهـــا أن تعـــيش إلا فـــي المدينـــة الفاضـــلة، ولازالـــت تتأمـــل النظـــر إليـــه حتـــى فـــتح عينـــاه العســـليتان نـــاظرًا إليهـــا، كـــان المشـــــهد وكأنـــــه قصـــــة آدم وحـــــواء، كأنـــــه البدايـــة، بدايـــة لحيـــاة جديـــدة، وقصـــة جديـــدة، وقـــدر جديـــد، ســـألته جايـــدن وكـــان يبـــدو عشريني العمر:

_أأنت بخير؟

فتبســم ابتســامة عريضــة غطــت جفــون عينيــه، تعجبـــت مـــن ابتســـامته وراحـــت تســـأله مـــرة أخرى:

_من أنت؟ أأنت بخير؟ أتسمعني؟ يا سيد هل تسمعني؟

لكنـــه لـــم ينطـــق بحـــرف محافظًـــا علـــى ابتســـامته العريضـــة، ومـــا مـــرت لحظـــات حتـــى رفـــع رأســـه

يحاول النهوض بجسمه، ما أجمل أن نكافح لأجل الحياة وما ألذ طعم المقاومة من أجل البقاء، قامت بمساعدته حتى استوى قاعدًا يتأمل البحر، تعجبت جايدن من نظراته وضلت تتمعن فيه، نظرة في وجهه وأخرى في البحر، حتى إذا هو يحاول الوقوف همت تساعده ممسكة بذراعه لكنه دفعها معنفًا، تراجعت جايدن إلى الخلف مستغربة محافظة على توازنها مشمئزة من تصرفه، أحيانًا عندما تكون الأمور علينا جديدة وخاصة المواقف الصعبة قد لا نحسن العمل فيها لا لجهل منا بالمعاملة وإنما هي ردة فعل طبيعية تفرضها علينا فطرتنا، قابل البحر واقفًا بصعوبة بالكاد تحمله ساقيه مذعورًا صارخًا فيه قائلًا:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_قد ماتوا كلهم، رأيتهم يغرقون أمام عيني، نذير، عامر، سعيد، عبدالحق، ماتوا جميعًا.

ثم أخذ يمشي بخطوات ثملة نحو البحر، ادهش جايدن تصرفاته وصراخه في وجه البحر، وما هي إلا خطوات حتى وقع على الرمال مجهشًا بالبكاء، كان مشهدًا صعبًا على جايدن وهي رقيقة الإحساس مرهفة النفس، دقائق مرَّت وهو لازال على تلك الحال، لم تتحمل المشهد وأبت إلا أن تفهم ما يجري معه، اقتربت منه مرَّة أخرى وقد جلس متكئًا على يديه رافعًا رأسه يكلم السماء، لم تفهم ما كان يقوله لكنها أدركت أنه يتكلم بلغة العرب أو ما يشبهها، هنا قامت بربط الأحداث في مخيلتها (ملقى على الشاطئ، مبلل الثياب، يصرخ في وجه

البحـــر، يـــتكلم بلغـــة لا تفهمهـــا) وأدركـــت أنـــه مهـــاجر غيـــر قـــانوني ألقـــى بـــه البحـــر فـــي هـــذا الســـاحل ومـــا عـــزز إدراكهـــا لـــذلك ملامـــح وجهـــه غيـــر الأوروبيـــة، رأت الـــدموع تنـــزل مـــن عينيـــه، رأت كيـــف أنهـــا امتزجـــت مـــع ميـــاه البحـــر المالحـــة، رأت كيـــف أن عيونًـــا فـــرت مـــن وطنهـــا لتـــذرف دمعهـــا فـــي وطـــن آخـــر، نادتـــه بهدوء وهو يبعدها بأمتار:

_يا سيد.

قـــام وواجههـــا بوجـــه شـــيخ قـــد جـــاوز الســـبعين مـــن عمـــره لاقـــى مـــن صـــروف الزمـــان مـــا لاقـــاه بوجـــه متعـــب متعجـــب، ابتســـمت لـــه ووضـــعت راحـــة يـــدها علـــى أعلـــى صـــدرها مشـــيرة وقالت:

_أنا جايدن.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

كيف لا يكون مقبولًا أو جميلًا من يقابلنا بابتسامة صادقة ونحن في أضعف أحوالنا، كيف نمنعه من دخول قلوبنا، هذا إذا لم يملكها ويستعمرها، حرَّك شفاههُ ببطء كأنه يريد الكلام ولكن لا يدري ماذا يقول حتى نطق مسرعًا بصوت خاطف واضعًا يده على صدره:

_علي، أنا علي.

بدى السرور واضحًا على وجه جايدن حين رأت منه هذا التفاعل اللطيف، سألته:

_أتتحدث الإسبانية؟

نظر إليها علي باستغراب إذ أنه لم يفهمها، نطق بالإنجليزية قائلاً لها:

_أنا أتقن الإنجليزية.

تجاوبت معه بسرعة إذ أنها هي الأخرى تتقن الإنجليزية، سألته قائلة:

_من أين جئت؟ ومن ألقى بك في هذا الشاطئ؟

فأجابها بعينين شاحبتين وصوت تتخلله نبرة خشنة جافة:

_من الجزائر.

قالت له: وما قصتك؟

قال: أشعر بالعطش ألديك ماء؟

اعتذرت منه متأسفة فهي لم تراعي ضعفه وحالته أنذاك، لم تدر ماذا تصنع له كمعروف، قالت له:

_انتظر دقيقة سأحضر لك الماء.

فأشار محركًا رأسه أي نعم، انطلقت مسرعة بجرية رياضية أثارت الإعجاب وبعثت القوة في علي وهو في ذلك الضعف

والـــوهن، وصـــلت وركبـــت ســـيارتها لتحمـــل نقودهـــا إلا أنهـــا لســـوء حظهـــا نســـيت إحضـــار حقيبـــة النقـــود معهـــا مـــن البيـــت إذ كانـــت متعجلـــة بـــالخروج، ترجلـــت مـــن الســـيارة مهملـــة إغـــلاق بابهـــا مســـتاءة واضـــعة يـــديها أعلـــى رأســـها وتتـــنفس بقـــوة، احمـــرت وجنتاهـــا وبرقـــت عيناهـــا وحـــارت مـــاذا ستصـــنع حيـــال ذلـــك، عـــادت مســـرعة إلـــى علـــي لكنهـــا لـــم تجـــده حيـــث تركتـــه، لـــم تجـــد أحـــدًا ســـوى آثـــاره علـــى الرمـــال، لـــم تجـــد ســـوى أمـــواج البحـــر المتتابعـــة التـــي تختفـــي ســـرعان مـــا تصـــل إلـــى أخمـــص قـــدميها، هنـــاك عـــاد وانتـــاب جايـــدن ذاك الشـــعور، الشـــعور بـــالفراغ والغيـــاب والوحشـــة وكـــل مـــا يمكـــن قولـــه عـــن الشـــوق، لـــم تعـــش مـــع علـــي إلا بعـــض دقـــائق، فمـــن أيـــن أتـــى هـــذا

الشـــوق المفـــاجئ؟، نعـــم لـــم يكـــن بضـــع دقـــائق بـــل هـــو عهـــد قـــديم، مـــن زمـــن بعيـــد، مـــن عـــالم أزلـــي لا يعـــرف عنـــه شـــيء ســـوى أنـــه عـــالم لطيـــف قـــد كتبـــت فيـــه كـــل ســـطور الحيـــاة، تشـــوش تفكيرهـــا وأملـــى لهـــا قلبهـــا فراحـــت تتقفـــى آثـــاره علـــى الشـــاطئ، تنظـــر هنـــا وهنـــاك، تســـرع فـــي مشـــيها تـــارة وتـــارة أخـــرى تبطـــئ فيه منادية:

_علي، يا علي، أين أنت؟ علي؟

لكـــن مـــن دون جـــدوى فـــلا أحـــد يجيـــب ولا أحـــد يســـتجيب لنـــدائها، لـــم تيـــأس مـــن البحـــث عنـــه، اســـتمرت بالســـير علـــى شـــاطئ البحـــر ومناداتـــه حتـــى رأت فـــردة مـــن حذائـــه منغمســـة فـــي الرمـــال لا يظهـــر إلا جـــزء يســـير منهـــا، ســـحبتها مـــن الرمـــال وضـــلت تنظـــر إليهـــا بـــتمعن ثـــم

تبسمت ضاحكة من أفعالها وتصرفاتها السابقة وقالت:

_أهذا كل شيء؟ أهذا كل ما تركته لي الأمواج؟ أنصيبي منك ما تبقى من أثرك؟ نصيبي منك موجة بحر تلاشت عند ملامسة الشاطئ؟

عادت إلى سيارتها حزينة عابسة الوجه، بطيئة الحركات والنظرات، يتدلى في يدها ذاك الفرد من الحذاء، لم تعد بخُفيّ حنين كما يقال لكنها عادت بخُف علي، أغلقت نوافذ السيارة ونوافذ وجهها أيضًا وأرخت رأسها على المقعد، كانت تريد أن تخلو بنفسها ساعة كي تقرأ آخر سطر من قدر ذلك اليوم حتى سمعت صوت طرق على نافذة السيارة، فتحت عيناها بقدر يسير

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

تنظـــر تجـــاه النافـــذة إذا هـــو علـــي يطـــرق النافـــذة، إذا هـــو ذلـــك القـــدر يطـــرق مـــرة أخرى_أظنهـــا كانـــت تقـــرأ الســـطر الأول منـــه_ومن دون تـــردد ضـــغطت علـــى زر فـــتح النوافـــذ منتصـــبة عيناهـــا نحـــوه وبوجـــه ملـــؤه الفـــرح والســـرور، لينـــزل ذلـــك الحجـــاب الزجـــاجي منـــزلًا معـــه كـــل ألـــوان التعـــب والإرهـــاق عنهـــا، وليُســـقِط القـــدر كـــل حـــواجز الإخـــتلاف مـــن لغـــة وديـــن وعـــرق، ويتـــرك ذلـــك المشـــهد الإنســـاني يكتـــب علـــى صـــفحات الأرض مـــا يشـــاء، يكتـــب فـــي عينـــي إمـــرأة كـــل ألـــوان الأنوثـــة ويرســـم علـــى ابتســـامة رجـــل كـــل أشـــكال الرجولـــة، قـــال لهـــا علـــي متكئًـــا بيـــده علـــى أعلـــى هيكـــل الســـيارة مبتســـمًا ممازحًـــا وقد أخفض رأسه تجاهها:

_أين الماء، أنا على وشك الموت؟!

طأطـــأت جايـــدن رأســـها خجـــلًا منـــه لترفعـــه بسرعة بابتسامة خاطفة قائلة له:

_عدتُ ولكنني لم أجدك حيث كنت.

ليقطع كلامها قائلًا:

_كان الأحرى بك أن تنتظري.

قالت وقد سكتت للحظة:

_كأني انتظرتك طويلًا! لا أدري! حقًا لا أدري!

ثـــم ســـحبت مـــن المقعـــد الـــذي بجوارهـــا زوج الحـــذاء الـــذي وجدتـــه منغمسًـــا فـــي الرمـــال وقدمته له وقالت:

_وجدته في الرمال.

فنظر إليها نظرة كهل عارف وقال بهدوء:

_مـــا فائـــدة هـــذا الـــزوج مـــن الحـــذاء إن لـــم يكـــن لـــه زوج آخـــر يشـــبهه؟ يقاســـمه المســـير ويفهـــم

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

خطواتـــه، إن ســـار فـــلا يســـير بدونـــه، وإن توقف توقف هو أيضًا وفاء له.

أعجبـــت جايـــدن برجاحـــة عقـــل علـــي وجمـــال تفكيـــره وفصـــاحة لســـانه، وهمـــا يتبـــادلان النظـــرات فـــي صـــمت حتـــى تســـللت خيـــوط اشـــراقة الشـــمس الذهبيـــة لتضـــفي علـــى ذلـــك المشـــهد أجمـــل لحظـــات الحيـــاة وأرقاهـــا، إشـــراقة شـــمس ليســـت كـــالتي نراهـــا فـــي بدايـــة كـــل يـــوم تقريبًـــا فهـــذه المـــرة اختلفـــت عـــن ســـابقاتها، لا لأن الشـــمس كبـــرت أو صـــغرت أو تجملـــت ذلـــك اليـــوم بـــل ربمـــا شـــيء يحـــدث فـــي الأرض مـــا جعـــل خيـــوط اشـــعتها تصـــبح أكثـــر دقـــة وأكثـــر جمـــالًا، دعتـــه ليركـــب السيارة، فسألها:

_إلى أين؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

نظـــرت إلـــى الزجـــاج الأمـــامي للســـيارة لبرهـــة ثم نظرت إليه وقالت:

_لا يهم ما دمنا معًا.

★★★

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الفصل الثاني

(عند الجدة)

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الآن بـــدأ المســـير، بـــدأ الشـــعور بـــالوجود، بـــدأت الحيـــاة، وبينمـــا هُمـــا يقطعـــان المســـافات دار بينهمـــا حـــوار عرفـــا مـــن خلالـــه بعـــض المعلومـــات عـــن بعضـــهما البعض_مـــا أروع التعـــارف_وعرف علـــي أنـــه فـــي إســـبانيا وبالضـــبط فـــي مدريـــد، وعـــرف أن لجايـــدن جـــدة تقـــيم بمفردهـــا فـــي أحـــد أريـــاف فالانســـيا وهُمـــا الآن بصـــدد زيارتهـــا، كـــان علـــي شاخصًـــا بصـــره مـــن وراء زجـــاج نافـــذة الســـيارة يتأمـــل شـــوارع مدريـــد ومـــدى جمالهـــا واكتضاضـــها بالمـــارة والســـيارات وكثـــرة المحـــلات الفـــاخرة فيهـــا ونظافـــة أرصـــفتها واتســـاعها، ولازال كـــذلك حتـــى دخلـــوا الريـــف، ريـــف فالانســـيا الجميـــل، ســـاعة ربمـــا أو أقـــل منـــذ انطلقـــا حتـــى وصـــلا إلـــى بيـــت ذو بنيـــان كلاســـيكي خشـــبي

قديم تحفه مجموعة كبيرة من الأشجار ومساحات خضراء ساحرة المنظر، وكانت تجلس في وسط ذلك الجمال الطبيعي إمرأة يبدو عليها أثر الكبر بوضوح تلبس لباسًا إسبانيًا تقليديًا وتحمل بيدها ريشة وتقابلها لوحة رسم متكئة على مُثبِّت، كانت ترسمُ، كانت تُمارسُ الفن بكل هدوء وقرار، كانت تزيدُ ذلك الجمال جمالًا بفنها وهدوئها وبآخر ما تبقى من عمرها، مسَّ ذلك المشهد قلب عليٍّ وتغلغل في أعماق قلبه مُريقًا أدمع مقلتيه موقضًا كل أنواع الشوق والحنين والرغبة في العودة، العودة إلى أحضان أمه التي تركها تعِدُّ طعام العشاء ليلة ركب قارب الهجرة، الرغبة في العودة إلى قبر أبيه الذي مات وهو يطلب لقمة

العيش في أحد ورشات العمل الصناعية، الرغبة في العودة إلى أخواته الثلاثة اللائي خلَّفهنَّ بلا مُعين وهن طالبات في المتوسطة، الرغبة في العودة إلى الوطن والجلوس في ذلك المقهى الذي يقرب حيه الشعبي هو وأصحابه الذين حال بينه وبينهم الموج، أوقفت جايدن السيارة قرب المنزل لتنظر إلى علي وهي ترى تلك الدموع كيف تتدفق على خديه للمرة الثانية راسمة مسارها إلى أسفل لحيته التي لا تكاد تُبين لخفتها لتسقُط بعدها على قميصه المبلل مُنزلة في ترقرُقها شيئًا من ذلك الألم المكبوت في داخله، وبتفاعل معه قالت له تؤنسه وتواسيه:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_لا عليك يا عليّ، سينقضي كل حزن وسيسكت كل ألم ويندمل كل جرح.

بصمت ضلَّ علي يتأمل ويتألم، نزلت جايدن من السيارة وبابتسامة كشفت عن جمال سنها منادية تلك العجوز:

_جدتي، جدتي.

نظرت العجوز تجاهها مُستجيبة لصوت حفيدتها وقد غمرتها الفرحة والبهجة والسرور، وضعت ما في يدها من أقلام وألوان وقامت تشرح ذراعيها داعية جايدن إلى حضنها، بخطوات مهرولة أقبلت جايدن إلى حضن جدتها تعانقها وتقبلها وتحييها بأجمل التحايا وأنداها، وعلي يتابع ذلك المشهد بخشوع بعدما شَخَصَ بصرهُ وصمَّتْ أذنه عن سماع كل شيء إلا تلك

الضـــحكات والقـــبلات التـــي كـــان يصـــغي إليهـــا بقلبـــه، وبعـــد لحظـــات عنـــاق وترحيـــب ســـألت الجدةُ جايدن:

_كيف حالك بنيتي؟ وكيف حال والديك، أهما بخير؟

بابتسامة دائمة على وجه جايدن تجيب:

_نعم يا جدتي، أنا بخير وأحسن ووالداي كذلك.

سألت الجدة مُستغربة:

_أين والدك؟ لمَ لمْ يأت معك لزيارتي؟

جايـــدن: الحقيقـــة يـــا جـــدتي أنـــه أعـــارني ســـيارته لأذهـــب إلـــى قاعـــة الرياضـــة لكـــن حـــدث معـــي أمرٌ لم يكن في الحسبان.

وســـردت لجـــدتها قصـــة لقائهـــا مـــع علـــي لتسألها الجدة في الأخير:

_وأين ذلك الشاب الآن؟

أجابت جايدن بكل بساطة:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_هو معي، هناك في السيارة.

وأشارت بيدها إليه، رأته الجدة بذلك الوجه الشاحب اللون وتلك العيون الذابلة وذلك الشعر المبعثر مدهشة بقبح مظهره، جاهلة ما يخفيه جوهره، وفي كلمات عتاب وتوبيخ تقول الجدة لحفيدتها:

_من هذا؟ لمَ أحضرته معك؟ ولمَ أركبته السيارة أصلا؟ إنه شخصٌ مغترب غريب عنك ومظهره البشع! يبدو متوحشًا ومتعصبًا، حقا لقد أصبتِ بالحمق يا بنيتي.

والجدة تتكلم وتعاتب حتى قاطعتها جايدن معترضة حديثها:

_لا، جدتي، إنه إنسانٌ لطيفٌ ومُسالم.

وبصوتٍ عالٍ تعارض الجدة أيضًا قائلة:

_وهل يأتي السلام من أرض الجنوب؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

لـــتخفض صـــوتها بعـــد ذلـــك واضـــعة يـــديها علـــى كتفي جايدن متعاطفة معها قائلة:

_يـــا بنيتـــي لقـــد قـــرأت عـــنهم الكثيـــر، وســـمعت مـــن أخبـــارهم ورأيـــت بعضًـــا مـــنهم، إنهـــم بشـــرٌ مـــن الصـــنف الأدنـــى، همـــجٌ، متعصـــبون، لا يســـتطيعون العـــيش فـــي ســـلام ووئـــام، حيـــاتهم كلهـــا حـــربٌ وجـــرائم وقتـــل، لا يرحمـــون بعضـــهم الـــبعض، فكيـــف لهـــم أن يرحمونـــا، يـــابنيتي صـــحيح أنهـــم بشـــرٌ مثلنـــا لكـــن لـــيس لديهم شعور وإحساس ولا رحمة.

تبـــدلت ملامـــح وجـــه جايـــدن إذ برقـــت عيناهـــا ومالتـــا للبكـــاء وانكســـر حاجباهـــا وانطفـــأت ابتســـامتها المشـــرقة، فكـــأن مـــا تقولـــه لهـــا جـــدتها مخـــالف لمـــا عاشـــته ورأتـــه لســـاعات أو أقـــل ربمـــا مـــع علـــي، نظـــرت إلـــى علـــي وهـــو فـــي

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

السيارة، لم يكن يفهم حديثهما بالإسبانية لكنه علم من لغة جسديهما أنه غير مُرحب به عند تلك العجوز، نظر إلى جايدن نظرة رضا متكلفاً في تبسمه فكأنه يقول لها:

_لا عليكِ جايدن فذلك شيء طبيعيٌّ أن يرفضني أهلك وأقرباؤك لأنني لست منكم ولا فيكم، ولا أقربكم بأية صلة، حتى أنني لا أفهم لغتكم ولا أفقه طريقة عيشكم لكنني أشكرك على تقبلك لي واستضافتي على أرضكم ومقاسمتك لي الطريق، طريق الحياة، طريق السلام، طريق الإنسانية، طريق التَقبُّل، وحتى طريق الحب.

سمعت جايدن قوله هذا، أي قصدي قرأته في نظرات عينيه وقسمات وجهه البريء ثم نظرت إلى جدتها وقد أمسكت بيديها اللتين

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

وضعتهما على كتفيها وهي تقول لها راجية متوسلة:

_جدتي إني أسألك تجاه روح جدي الفقيد أن تأوي عليَّا عندك لبعض الوقت ريثما يجد ملجأ آخر يلتجئ إليه، وأعدك أنني لن أنسى معروفك هذا ما حييت.

التفت الجدة تنظر يمنة وشمالاً مرة في وجه علي وأخرى في عيني حفيدتها، رأفت الجدة لحالها ونزلت عند رغبتها بتكلف مشترطة عليها أن لا يدخل عليَّ بيتها وأن تمنحه غرفة الخردوات القديمة الواقعة خلف بيتها مباشرة وذلك لبضعة أيام حتى يجد سبيلًا آخر غيرها، قبلت جايدن بذلك وذهبت مسرعة مسرورة تجاه السيارة تبشِّر عليَّا بذلك، قالت له بالإسبانية متناسية:

_أبشِـر يـا علـيّ لقـد وجـدت لـك إقامـة تأويـك لأيام في حمى جدتي.

نظر إليها عليٌّ بتعجُّب وقال لها بالإنجليزية:

_لم أفهمك ماذا تقصدين، تكلمي بالإنجليزية.

أمسـكت برأسـها تضـحك علـى نفسـها إذ نسـيت أن عليَّـا لا يفهـم الإسـبانية، نعـم إنـه ذلـك الشـعور الإنسـاني الراقـي، ذلـك الإسـتواء الطبيعـي للحيـاة، ذلـك القبـول الفطـريٌّ بـين البشـر، ذلـك النسـيان المحمـود الـذي يشـكر عليـه الإنسـان، نعـم إن البشـر رغـم اخـتلاف لغـاتهم تبقـى الإنسـانية هـي اللغـة الوحيـدة التـي يمكـنهم مـن خلالهـا التواصـل فيمـا بيـنهم بسـهولة، وهـي غـامرة فـي نشـوة الفـرح والسـرور ينظـر إليهـا عليٌّ نظـرة تأمـل مُسـترجعًا للأحـداث متـدبرًا فيهـا وكيـف أنهـا

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

ســـاعدته وهـــا هـــي الآن تبـــذل كـــل مـــا فـــي وســـعها مـــن أجـــل تـــوفير الإقامـــة لـــه، كيـــف أنهـــا قـــدمت لـــه المســـاعدة وهـــي لا تعـــرف عنـــه الكثيـــر، لـــم تجعـــل معرفـــة ماضـــيه ولونـــه وأصـــله ونســـبه وحالتـــه الإجتماعيـــة وكـــل شـــيء عنـــه شـــرطًا لمســـاعدته بـــل اكتفـــت باتبـــاع مـــا تمليـــه عليهـــا فطرتهـــا النبيلـــة، وروحهـــا الطيبـــة، وإحساســـها الخيِّـــر، وضـــميرها الحـــيِّ، وفـــي فرحـــة دعتـــه تعرفـــه بجـــدتها، ترجَّـــل مـــن الســـيارة مُتباطئًـــا، تقـــدَّم وإياهـــا نحـــو الجـــدة وهـــي ترقـــبُ حركاتـــه وخطواتـــه وتفاصـــيل جســـده وملامـــح وجهـــه، ومـــا لبـــث أن وصـــلا حتى ألقى عليها التحية تحية الإسلام:

_السلام عليكم.

مُتبسِّـمًا فـي وجههـا مُقـبِّلًا رأسـها، لان قلـب الجـدة نحـو علـى بعـض الشـيء لكنهـا لازالـت مُتوجِّسـة منـه لِمـا تحملـه مـن أفكـار وصـور خاطئـة عـن العـرب والإسـلام، لـم تكـن الجـدة تـتقن الإنجليزيـة بمهـارة فكانـت جايـدن الترجمان بينهما، سألته الجدة:

_من أين جئت؟ ولماذا قدمت إلى هنا؟

ترجمـت جايـدن لعلـيٍّ سـؤال الجـدة إلـى الإنجليزيـة ففهمـه وراح يجيبُهـا بالإنجليزيـة وجايـدن هـي الأخـرى تتـرجمُ جوابـه للجـدة بالإسبانية قائلًا:

_لقـد جئـتُ مـن أرض ليسـت بالبعيـدة عـنكم، فيهـا بشـر يعيشـون ويمارسـون حيـاتهم مثلمـا تمارسـونها انـتم، ركبـت فـي بحـر مـالح طعمـه، واسـعة أقطـاره، عميقـة أعماقـه، مليئـة

بـــالكنوز والأحجـــار الكريمـــة وكـــذلك مليئـــة بـــالقروش المفترســـة، قـــذفتني أمواجـــه إلـــى شاطئكم بعدما انقلب القارب بي وبأصحابي

سكت لبرهة متأثرًا ثم أكمل كلامه يقول:

_لـــم تكـــن وجهتنـــا إســـبانيا لكـــن أمـــواج القـــدر رمتنـــي بشـــاطئها، ولقـــد قـــدمتُ إلـــى هنـــا بـــدعوة مـــن جايـــدن للتعـــرف عليـــك وعلـــى ريـــف إســـبانيا الجميل ولأخذ نفس جديد في هذه الحياة.

سكتت الجدة للحظة تنظر إليه لتسأله ثانية:

_ماذا تريد من الحياة؟ وما هو هدفك فيها؟

أجابها عليٌّ بكل هدوء وثقة قائلًا:

_لا أريـــد مـــن الحيـــاة ســـوى العـــيش الكـــريم، ســـوى أن أشـــعر فيهـــا بـــأنني أشـــعرُ بهـــا، أشـــعرُ بـــأنني إنســـان وأنتمـــي إلـــى البشـــر، وبـــأنَّ لـــي حقًـــا فـــي هـــذه الأرض، حـــق الوجـــود وحـــق

الإنتساب وحق القبول، وكل حق دوَّنته الإنسانية في دستورها، أما أهدافي وطموحاتي وغاياتي فهي مرهونة بإرادة الحياة.

التزمت الجدة الصمت مرة ثانية لبرهة من الزمن ثم قالت له بصوت هادئ وقد استدارت راجعة إلى مجلسها:

_تفضل، مرحبًا بك عندنا.

كم كانت جايدن سعيدة وهي تترجم لعليٍّ تلك الكلمات الترحيبية، قالت لجدتها في فرحة:

_أيمكننا أن نتفقد غرفة الخردوات؟

أجابت الجدة برضا وقبول وقد أمسكت ريشة الرسم تستأنف عملها:

_نعم، يمكنكما ذلك.

سارت وعليّ تجاه غرفة الخردوات مسرعين وعليّ في ارتجاف وتعثر في الخطوات حتى وصلا إلى غرفة يبدو عليها آثر القدم بوضوح من بناء تقليدي وقرميد أحمر متشقق ببقايا أتربة عليه ونافذة خشبية قد حال لون خشبها وتآكل وباب خشبي آخر هو أيضًا لم يسلم من فصول الزمن، تحفه مجموعة من بقايا ألواح وأشياء منزلية لم تعد صالحة لشيء، همَّت جايدن تزيل تلك البقايا في شغف وحماس وساعدها في ذلك عليّ رغم وهنه، كانا يزيلان بيديهما كل تلك البقايا البالية من أشياء مضى عليها الدهر، كانا يزيلان جميع تلك الحواجز رغبة في فتح ذلك الباب العتيق الذي لم يفتح منذ أمد بعيد، وها هو

الآن على يديهما يفتح من جديد، فكأنه كان ينتظرهما كل تلك المدة، كان ينتظر ميلادهما وشبابهما حتى يبلغا أشدهما ويجيئانه فاتحين، أمسكت جايدن بقفل الباب وكان مكسورًا تريد فتحه لكنه لم يفتح، كان شيء ما بالداخل يعيق فتحه، حاولت دفعه لكن بلا جدوى، اِستدارت إلى عليٍّ وقد اِشتدت أنفاسها من جهد الدفع، تقدَّم نحوها واِستسمحها أن يحاول فتح الباب، ابتعدت عنه جانبًا، وضع يديه على الباب، يدٌ في قفله والأخرى على خشبته وراح يدفع بكل قوة، يدفع ويدفعُ حتى بدت عروق جبينه من الجهد ناله التعب، وما إن همَّ ليتركه حتى تسللت من تحت جناحه يديْ جايدن تدعمهُ في دفع الباب، قد لا تكون قوية بما

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

فيه الكفاية لفتح الباب لكنها لا شك أثارت القوة بعليّ، هكذا هي المرأة المثالية في مشاركتها للرجل، مؤازرة، ذكية، ضعيفة قوية، هكذا هي حواء خلقت وفطرت لتبقى بجانب آدم تدعمه وتكمله وتتقاسم معه أطراف العمر، وبعد جهد وجلد منهما تحرك الباب وبدأ يفتح ببطء شيئًا فشيئًا حتى أصبح لأحد منهما قدر كافٍ من المساحة للدخول، دخلت جايدن إلى الغرفة أولًا فرأت حالتها أشد إزراء مما كانت تتوقع فهي مظلمة بعض الشيء ورائحة الغبار وغيرها تفسد الجو فيها، أما الخردوات من بقايا أثاث منزلي وبقايا معدات السيارات والزيوت والشحوم تملآن المكان إضافة إلى سرير مهترئ وكرسي قد كسرت إحدى

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

سيقانه وأغراض أخرى معلبة وغير معلبة تضيق من مساحة الغرفة، نظرت خلف الباب إذا بها ترى آلة جز العشب مقلوبة رأسًا على عقب تسد الباب أن يفتح، نادت عليًّا للدخول، فدخل وتفحص الغرفة بعينه ثم قاما بسحب الآلة وإزالتها عن خشبة الباب ليفتح بشكل طبيعيٍّ بعدها ويسمح لذاك النور أن يدخل ويضيء الغرفة وليتسلل ذلك النسيم العليل إليها مُلطفًا جوَّها مُخفيًا كل آثار التلوث، نظرت جايدن إلى عليّ وإبتسمت قائلة:

_أعلمُ أنها لا تليق بك لكننا سنعمل على تنظيفها وتحسينها لتصبح أفضل.

إبتسم عليٌّ هو الآخر قائلًا مُجاملًا:

_لا عليك، إنها تبدو جميلة ولائقة.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

سألته بملامح مُتعجبة:

_كيف وهي في هذه الحالة؟

علي: في الحقيقة هو شعور، شعور بالجمال أو شيء من هذا القبيل.

قالت له وقد نظرت إليه بنظرة استفهام:

_ماذا تقصد؟ هلا فسرت لي؟

علي: لا وجود لتفسير لقولي سوى أن المكان يبدو جميلًا لأنك فيه.

بدا الخجل واضحًا ومرسومًا في قسمات وجهها، طأطأت رأسها لوهلة ثم رفعته لترى عليًّا وهو يؤول للسقوط على الأرض كورقة من شجر الأمنيات تتلاوح في خريف الحياة يميل بها القدر يمينًا وشمالًا، شيئًا فشيئًا تقترب من الأرض، وما إن أوشك على السقوط أمسكت به تحمل بعضه ومن

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

ثقل جسمه عليها نزلت به برويـة إلى الأرض ممددة إياه على بلاط الأرض الرطب البارد الأغبر وراحت تصفعه صفعات خفيفة على وجهه تحاول إيقاظه وهو ينظر إليها وقد تغشى عينيه ضباب التعب والجوع والإرهاق، كان يسمع كلامها بالكاد يسمعه فلم يحص منه إلا كلمات معدودات منها:

_عليّ، عليّ، قم.، قم، استيقظ.

وهو في تلك الحال حاول مجاهدًا القيام وعدم الاستسلام لحال الفشل، قام متكئًا على عاتق جايدن ليتمدد بعدها على ذلك السرير القديم المهترئ يسترجع أنفاسه ويجدد طاقته، خرجت جايدن من الغرفة بعدما طمأنته أنها ستذهب لتجلب له شيئًا ما ليأكله فهو أحوج إلى ما يكون للغذاء، دخلت

بيت جدتها لتلتقي أروى الخادمة التي تخدم جدتها منذ سبع سنوات أو ما يزيد على ذلك، سلمت عليها جايدن وكذلك سعدت أروى بلقياها إذ أنها لم تلقاها منذ مدة هي الأخرى، وبعد العناق وبعد أن ذهب الشوق عنهما وهدأت الخواطر وسكنت الأنفس سألت جايدن قائلة:

_هل تبقى من طعام فطور الصباح شيء؟

بتعجب تجيب أروى:

_نعم آنستي بقي القليل منه، هل أنت جائعة؟

قالت لها جايدن بتلعثم:

_لا، ليس لي، لأحدهم.

أروى: من؟

جايدن: هو في غرفة الخردوات خلف البيت.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

استغربت أروى لوهلة لكنها لم تعط الأمر أهمية كبيرة وجمعت ما تبقى من طعام فطور الصباح وقالت لجايدن:

_هو جاهزٌ آنستي.

حملت جايدن طبق الفطور بحماس وأخبرت أروى أن تلحقها بالشراب، خرجتا على التوالي متجهتين نحو علي وعين الجدة ترقبهما، وصلت جايدن أولًا فدخلت الغرفة بوجه متبسم بشوش لتدخل بعدها مباشرة أروى لترى عليا وهو في تلك الحال مستلقيًا على ظهره، شاحب الوجه، كثيف الشعر، بثيابه التي لم تجف بعد، أصاب أروى الذهول والدهشة والاستغراب والشرودُ كأنها شاهدت مثل هذا المشهد من قبل، كأن هذه الصور موجودة طبقها في أحد

ألبوماتها اللائي غلفهن غبار الأيام وأتربة النسيان وطواها قلب أحمر ولفّها بشريان الألم، نظر إليها علي بعدما استقعد من سريره بعينين ثملتين من الإرهاق، عينان رأتا ما يكفيهما من ألم الفقر والغربة والضياع، رآها بمئزرها الأبيض الخاص بالمطبخ والدال على زيّ الخدم، يراها كأنه قد رآها من زمن مضى لكن أين؟ ومتى؟ هو ما تركه يلزم النظر إليها وبقيا يتبادلان النظرات والعبرات وجايدن تنظر إليهما بعدما جلست قرب علي وهي تضع صحن الطعام، تنظر بعين التساؤل والإستغراب وحال لسانها يقول:

_ما بكما؟ ماذا هناك؟ ما الخطب؟ ما القضية؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

وما إن همّت لتتكلم حتى رأت أروى قد وضعت الشراب قرب الطعام وهو فوق السرير والتفّت مسرعة للخروج تضع يدها على فمها وقد ملأ عيناها دمع تطايرت بعض قطراته كأنها حبات درّ أو مرجان انفلتت من عقد أو سقطت من يد أحدهم، ربما كانت يد الذكرى أو ربما كان أحدهم هو الزمان نفسه، ومن يدري؟ نحن هكذا نؤول المشاهد حين لا نجد سندًا أو دليلًا يساعدنا في تأويلنا للحياة، سألت جايدن عليًّا:

_أتعرفها؟

فأجاب نافيا:

_لا، أبدا، لكن أظنها انزعجت مني.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

جايـــدن: لا عليـــك، تنـــاول طعامـــك أنـــت وأنـــا سأذهب للإطمئنان عليها.

خرجـــت باحثـــة عـــن أروى فـــإذا هـــي واقفـــة متكئـــة علـــى إحـــدى أشـــجار الحديقـــة المحيطـــة بـــالمنزل تنظـــر إلـــى الســـهل الأخضـــر المـــنخفض المقابـــل لهـــا، اقتربـــت منهـــا بهـــدوء، اســـتدارت أروى بعـــدما شـــعرت بقـــدومها، ابتســـمت لهـــا جايـــدن فأجبرتهـــا علـــى الإبتســـام فتبســـمت أيمـــا ابتســـامة، ابتســـامة عوضـــت عـــن اللســـان بعـــض الكلمـــات التـــي عجـــز النطـــق بهـــا، أمســـكت جايدن بذراع أروى وهي تقول لها:

_لا عليك، سيكون كل شيء على ما يرام.

نظـــرت إليهـــا أروى نظـــرة منكســـرة الحـــاجبين بنبرة صوت مشجونة:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_قد كان كل شيء على ما يرام لما كنت أعيش وأسرتي في أمن ووئام، لا نشكو من شيء حتى فصل الشتاء لا نشكو مطره وبرده.

فقالت لها جايدن:

_وبعد؟

فقالت أروى:

_وبعد؟ وبعد ذلك لم تبق أسرة ولا أمن ولا وئام ولا حتى شتاء.

أمسكت جايدن بكلتا يديها بذراع أروى قائلة:

_ماذا حصل لها، أي قصدي أسرتك؟

قالت أروى:

_أنا امرأة شيشانية الأصل كنت أعيش وزوجي وابني البكر والوحيد في بيت بسيط، بسيط لمن يراه ولا يعرفه لكنه كان

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

بالنسبة لي ولأسرتي قصرًا نعيش فيه عيش الملوك والنبلاء، فإذا اجتمعنا على المائدة فالفرحة والسرور زادنا وشرابنا وإذا ضحكنا فالبدر والشمس والنجوم كلها تضحك لنا وإن احتفلنا بمناسبة ما فالسعادة يومنا أنذاك حتى نحن في يوم ويا له من يوم إبان الحرب الشيشانية ضد الروس كنا نتناول طعام العشاء وفجأة سكن كل شيء.

جايدن: كيف؟ ما حصل؟

أروى: حدث قصف قرب بيتنا أدى إلى سقوطه، سقوط الفرح، سقوط الأمن بل وسقوط الحياة.

أصاب جايدن الحزن لما سمعته من قصة أروى، ثم أكملت أروى حديثها تقول:

_ولمـــا رأيـــت ذلـــك الشـــاب هنـــاك بالغرفـــة تـــذكرت ابنـــي الـــذي مـــات أمـــام عينـــي وهـــو كثيـــف الشـــعر أغبـــر شـــاحب الوجـــه مـــن أثـــر القصف، إنه يشبهه كثيرا، كأنه هو.

ثـــم مســـحت دموعهـــا والتفتـــت لجايـــدن إذا الـــدموع تنـــزل مـــن عينيهـــا هـــي الأخـــرى، أحيانًـــا نتســـاءل لمـــاذا نحـــن البشـــر نحـــزن ويأخـــذنا البكـــاء عنـــدما نســـمع أو نعـــايش قصـــة ألـــم لإنســـان مـــا، نعرفـــه أو لا نعرفـــه؟ نعـــم إنـــه ذلـــك الآدم الـــذي يجمعنـــا ويـــربط مـــا بـــين ذواتنـــا، أرواح وأجســـادٌ موزعـــة فـــي أقطـــار هـــذا العـــالم الواســـع، هكـــذا نحـــن البشـــر، اختلفـــت أرواحنـــا ولـــو اِتفقـــت لكفاهـــا العـــيش فـــي جســـد واحـــد، ضمت أروى جايدن لصدرها تقول لها:

_لا عليك، لا عليك بنيتي.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

نظـــرت جايـــدن لهـــا وقالـــت بصـــوت حـــزين وشفاه متدلية:

_أهكذا يعيش بعض البشر في العالم؟

أجابتها أروى قائلة:

_بل هكذا يعيش معظم البشر في هذا العالم.

رجعـــت جايـــدن لغرفـــة الخـــردوات عنـــد علـــي بعـــدما مســـحت دموعهـــا بابتســـامة مشـــرقة فاتنـــة، دخلـــت علـــى علـــي وهـــو يتنـــاول الطعـــام بشـــراهة غـــامر عقلـــه فيـــه وأخبرتـــه أنهـــا ســـتذهب لمنـــزل والـــديها لتعـــود فـــي المســـاء وأخبرتـــه أيضـــا أن الخادمـــة أروى ســـتتفقده فـــي كـــل مـــرة إذا كـــان يحتـــاج لشـــيء مـــا، شـــكرها علـــي علـــى صـــنيعها هـــذا وأخبرهـــا أنـــه فـــي انتظارهـــا مســـاء، ركبـــت جايـــدن الســـيارة وانطلقـــت نحـــو منزلهـــا بعـــدما ودعـــت جـــدتها،

جلس علي بعدما تناول الطعام واستسقى من الماء يتأمل في الغرفة وفي الحال التي آن إليها حتى أخذه النعاس بغتة فنام نوم أهل الكهف ليستيقظ بعد ساعات وكان الوقت عصرًا، جلس متكئًا على جدار الغرفة الخشبي وراح يسترجع أنفاسه ويجدد طاقته، كان يشعر ببعض الألم في رأسه، دخلت عليه أروى تتفقّد حاله وإن كان يحتاج إلى شيء، شكرها على الطعام وطلب منها من بعد فضلها لو تعدّ له بعض القهوة، وافقت أروى وبكل سرور على طلبه وراحت تعدّ له القهوة وهو لازال في تلك الحال يقلب نظره هنا وهناك في الغرفة إذا بعينه تقع على آلة غيتار كانت مدسوسة بين الخردوات لا يظهر إلا قضيبها الأسود

بأوتاره الرنانة وقد قُطع أحدها، سحبها من بين الخردوات مغبرة متسخة، أخذها وأخذ خرقة من القماش وراح يلمعها ويزيل عنها ما رسب عليها من غبار وشوائب وإهمال ونسيان، كما أنه عمد إلى ذلك الوتر اليتيم المقطوع وراح يركبه ويعيده في مكانه الذي ينبغي أن يكون فيه ويعيد له صوته الشادي ووقعه الذي لا يمكن الإستغناء عنه، ولمّا انتهى من إصلاح الغيتار اِحتضنه ثم جعله في وضعية العزف ثم بدأ يجرب العزف عليه مرة فمرتين فثلاث حتى اِعتاد عليه وليتأكد أن الوتر الذي ركبه هو مشدود بما فيه الكفاية، دخلت عليه أروى وهي تحمل فنجان القهوة في يدها، وضع الغيتار قربه

وتكـــأه علـــى الجـــدار واِســـتلم فنجـــان القهـــوة مـــن أروى قائلًا لها بالإنجليزية:

_شكرا لك، شكرا لك سيدتي.

وراح يرتشف منه أول رشفة لترد عليه:

_ولو، أتريد شيئا آخر بنيّ.

توقف ثم نظر إليها قائلًا:

_أتتقنين الإنجليزية؟

أروى: والإسبانية أيضا.

علي: إذا كلانا غريب عن هذه البلاد.

أجابته بكل ثقة:

_نعم بني، كلانا غريب عن هذه البلاد.

علي: لا بأس، لا عليك.

وسألها: أيكون طعم القهوة رائقًا دون سكر؟

قالـــت لـــه: الحـــق أنـــي لا أشـــرب القهـــوة لكنـــي لا أظن طعمها أطيب من دون سكر.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

قــال لهــا: كــلا، هــي تــروق لــي أكثــر مــن دون سـكر، مثـل الحيـاة أحيانًـا تكـون مُـرَّة لنـا وهـي في نفس الوقت حلوة الطعم لذيذة العيش.

قالت له في شرود وتدبر فيما يقوله:

_ربما أحيانًا.

قال لها بعفوية وبرودة:

_أظن لا أحد يحب شرب القهوة مُرة مثلي هنا.

أجابته ضاحكة:

_كلا فالسيدة روزا كذلك تحب شرب القهوة مُرة.

قال لها متسائلًا:

_من روزا؟ أتقصدين العجوز سيدة البيت؟

قالــت لــه: هــي بالــذات اِعتــادت شــرب القهــوة مُــرة مــذ تــوفي عنهــا زوجهــا الســيد جــورج وذلــك الغيتــار الــذي بجانبــك يعــود لــه، كــان عازفًا ماهرًا.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

علي متحسرًا قليلًا:

_لا بأس، وأين هي الآن؟

أروى: في الحديقة كعادتها ترسم اللوحات.

علي: نعم نعم، رأيتها في الصباح تصنع ذلك، سأذهب لألقي عليها نظرة.

أروى: نعم، وأنا سأذهب لأعدّ طعام العشاء ريثما تقدم جايدن.

اِنصرفت أروى إلى البيت تعدّ طعام العشاء، أما علي فحمل الغيتار بيمناهُ وفنجان القهوة بيسراهُ خارج من الغرفة بخطوات متثاقلة متكاسلة حافي القدمين حتى وصل حيث الجدة ولوحتها، لمحته وهو يقترب منها لكنها شخصت نظرها فيه لمّا رأت الغيتار في يده كأنه هو السيد جورج في ريعان شبابه، أكملت السيدة روزا العمل على

اللوحة كأنها لم تر شيئًا بل ربما لا تريد أن تتذكر شيئًا، قال لها عليّ:

_أيمكنني الجلوس هنا؟

وكان يقربها بأمتار، لم تفهم الجدة كلامه بالإنجليزية، نظرت إليه وقالت له بالإسبانية:

_أكان عليك التقدم حافي القدمين؟

أجابها قائلًا وقد فهم كلامها من خلال نظرها إلى قدميه الحافيتين:

_إن لم يجد الإنسان ما ينتعل به قدميه أيبقى ساكنًا في مكانه؟ كلا، فليمش وليُقدم، إنما السير في الحياة بالإقدام لا بالأقدام.

سكتت الجدة واستأنفت عملها على اللوحة، جلس عليّ متربّعًا على أرض الحديقة المخضرة التي تشوبها بعض الصُفرة جرّاء

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

أشـــعة الشـــمس الحارقـــة وقـــد وضـــع فنجـــان القهـــوة قربـــه وحضـــن الغيتـــار إليـــه وراح يعـــزف بهـــدوء، بهـــدوء ورويّـــة، يُحـــرك الأوتـــار ويتحـــرك معهـــا بـــاِتزانٍ وخشـــوعٍ وتركيـــزٍ واِســـتمتاعٍ مغمـــض العينـــين، مكســـور الحـــاجبين، نظـــرت إليـــه الجـــدة بـــذهولٍ بعـــدما وضـــعت ريشـــة الرســـم مـــن يـــدها وراحـــت تصـــغي لعزفـــه، لصـــوت قلبـــه وإحســـاس روحـــه، وإلـــى كلماتـــه المنبعثـــة مـــن أخاديـــد الشـــعور ومـــن خلجـــات الصـــدق ومـــن أنهـــار الحريـــة وبحـــار الســـلام، ثـــم بـــدأ يغنـــي إحـــدى القصـــائد، إحدى قصائد الحياة:

سلامي سلامي، سلامي سلام

إلى أرض البريّة والأنام

سلامٌ على النفوس التقية

سلامٌ على المهج النقية

سلامٌ، سلامٌ على البشرية

سلامٌ، سلامٌ نحققه سوية

أيتها السماء فلتمطري جمالًا

ولتملئي الأرض إجلالًا

ولتخمدي البركان

ولتجمعي الإنسان

في جنة الرضوان

أيتها الأرض، أيتها الأم، أيتها الحنينة

احضنينا، احضنينا، اجمعينا

نحن أبناؤك، نحن أحفادك وأحبابك

لا! أيتها الحنينة لا تتركينا، لا تتركينا

لنا عندك حق نريده

لنا فيك حب نستزيده

لنا فيك الأمل نطيله

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

لنا فيك البقاء، عنك الفناء نشيله

لأنك الأم، أمنا الوحيدة

لأنك البداية والنهاية السعيدة.

وضل يعزف ويغني والجدة تنظر إليه مبتسمة ومعجبة به ومتعجبة من نفسها كيف أنها أخطأت في حقه واعتبرته إنسان متوحشًا متعصبًا لا يفقه شيء عن الرحمة واللطف والرقة والفن، حقًا شعرت بالذنب لكنها رغم ذلك صحَّحت كثيرًا ممّا كانت تعتقدهُ عن البشر في أرض الجنوب كما تسميها هي، كم متسرعون نحن البشر في الحكم على الغير دون محاورته ومحاولة فهم طبيعة تفكيره ومعتقده، حقًا كم نحن بحاجة إلى أن نمنح أنفسنا مساحة كبيرة من ثقافة الحوار والتعايش، فما ذنب إنسان

خيّرٍ ألقى به القدر في مجتمع ربما ظالم وفي بيئة نكدة، ترقرقت عيون الجدة بالبكاء إذ أنها وهي تسمع وتشاهد عزف وغناء عليّ تذكرت زوجها السيد جورج المتوفى عنها منذ سنوات مضت، نحن هكذا البشر في صفائنا ونقائنا نسخة واحدة نقية كمرآة صافية نرى بعضنا البعض فيها آدمًا واحدًا، بجسدٍ واحدٍ وروحٍ واحدة، وبينما الجدة وعليّ في سراديب الفن وخلجات الشعور وأخاديد الإنسانية كانت تقف هناك عند الشجرة متكئة عليها وقد جمعت يداها وأمالت رأسها ميلة المتدبر المحتار، كانت جايدن تسمع وترى ما يحدث بين الجدة وعليّ، كانت تسمع صوت البقاء وترى صورة الوجود في ذلك المشهد السامي

المعبر عن الحياة وتفاصيل التعايش بين البشر، لمحها عليّ وهو في نشوة الفن وعلى أمواج الحسِّ وراح يغني على نغم الأوتار:

أيتها الجميلة اِقتربي منَّا

فالحياة دونك تنفر منَّا

اِقتربي اِقتربي

نحن ندعوك نحن نرجوك نحن نريدك أنت

أن اِقتربي أيتها الجميلة، أيتها النبيلة

نحن نريدك، نحن نريد الحياة، أنت الحياة

ألا فاقتربي واملئي عالمنا جمالًا

وكوني حوّاء هذا الزمان دلالًا

كوني ضلعنا وعضدنا والأمان

كوني السكينة كوني الزمان كوني المكان

أيتها الجميلة كالنبات

لم يبق دونك للحياة حياة

اقتربي اقتربي أيتها الحياة

نحن نريدك أنت، نحن نريد الحياة.

اقتربت جايدن بفستانها الأحمر بخطوات أنثوية يزيد جمال وقعها حذاء الكعب العالي الذي كانت ترتديه وعانقت الجدة بعدما رأت الدمع يترقرق في مقلتيها بِابتسامة صغيرة طويلة المدى وبينما هي كذلك حتى أبصرت مشهدًا على اللوحة التي كانت تعمل عليها الجدة جعل مقلتيها تتفتحان لأقصى حدٍّ وببريق بدا واضحًا فيهما وجعل عليّ أيضًا يتوقف عن العزف والغناء، تُرى ما الذي أبصرته جايدن على اللوحة؟، وبينما هم كذلك حتى حطت بينهما حمامة رمادية اللون تحويها بقع بيضاء في مختلف

أطرافهـــا وفـــي ذيلهـــا بـــالأخص، راحـــت تنقـــب فـــي الأرض هنـــا وهنـــاك فـــي أمـــن وســـلام، لـــم تخـــش أحـــدًا مـــنهم أن يغـــدر بهـــا، عنـــدما يعـــم الســـلام بـــين النـــاس تصـــبح الحيـــاة أكثـــر ســـهولة ومرونة في عيشها، فأتساءل كل مرة:

_أيـــة حيـــاة يريـــدها البشـــر؟ إن كـــانوا يطلبـــون الحيـــاة الفارهـــة المتخمـــة بالرفاهيـــة فلمـــاذا لا يعملـــون علـــى تحقيـــق الســـلام كشـــرط أساســـي لذلك؟

توالـــت النظـــرات والتـــأملات حتـــى احمـــرت الشـــمس وآنـــت للغـــروب، فكأنهـــا توشـــك علـــى الســـقوط فـــي منتهـــى ذلـــك الســـهل الأخضـــر البعيـــد، غربـــت هـــي ولكـــن النـــور والإشـــراق لـــم يغيبـــا ولـــم يغربـــا مـــن قلـــوب الطيبـــين الخيـــرين الحـــالمين بحيـــاة آمنـــة وغـــد مســـتقر، بزيهـــا

الأبـــيض تقبـــل أروى علـــيهم لتأخـــذ معهـــم صـــورة تذكاريـــة مـــن عدســـة الجمـــال ومـــن كـــاميرا الحـــب، تناديهـــا الجـــدة بكـــل فـــرح وتلقـــي فـــي أذنهـــا كلمـــات وهـــي تصـــغي إليهـــا بكـــل ســـرور فكأنهـــا توصـــيها بشـــيء خـــاص وأروى تهـــز رأســـها فـــي كـــل مـــرة أي نعـــم وتزيـــد علـــى كـــلام الجـــدة بكـــلام آخـــر لا يســـمع إلا حسيســـه، وجايـــدن بينهمـــا مبتســـمة فرحـــة تنظـــر تـــارة إلـــيهم وتـــارة أخـــرى إلـــى علـــي كـــأن الأمـــر يعنيـــه، لتنصـــرف فـــي الأخيـــر مســـرعة نحـــو بـــاب البيـــت، وتقـــدم أروى نحـــو علـــي الـــذي بقـــي متعجبًـــا مـــن حركـــاتهم وتصـــرفاتهم وتقـــول لـــه بصوت هادئ وابتسامة عريضة:

_أريـــد أن أريـــك شـــيئًا بنـــي، فهـــلا قـــدمت معـــي إلى البيت؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

أجاب علي بتلعثم وتوجس:

_نعـــم ولكـــن لا أظـــن أن الســـيدة روزا ســـتكون مسرورة بذلك.

قالت أروى:

_بلى، قد طلبت الإذن منها.

نظـــر يمنـــة وشـــمالًا ثـــم قـــام يحمـــل القيتـــار وحملـــت فنجـــان القهـــوة هـــي الأخـــرى واتجهـــا نحـــو بـــاب البيـــت بينمـــا الجـــدة تجمـــع أغراضـــها في هدوء وتمهل.

★★★

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الفصل الثالث

(على مائدة العشاء)

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

دخلت أروى مع علي البيت وفي أول خطوة لعلي رأى واجهة كبيرة ذات أرضية ترابية اللون تتوزع على أطرافها أبواب عدة وكانت تتوسطها طاولة كبيرة الحجم نوعًا ما يغطيها غطاء أحمر غامق لونه كانت أروى قد وضعت عليها فنجان القهوة ذاك وكان يحيط بها حوالي سبعة كراسي خشبية أو ثمانية تقريبًا ذات أطر ذهبية اللون، لم يكن لعلي الوقت الكافي لعدها أو التدقيق في تفاصيلها، المهم تبدو أنها تسع الجميع، صعدا في درج يشتكل عليك معرفته أكان مصنوعًا من الخشب الصلب أم من الرخام الأملس، درجة تلو الأخرى حتى وصلا إلى الطابق الأول المتعدد الغرف هو الآخر، فتحت أروى باب إحدى تلك الغرف ودعت

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

عليا ليدخلها، كانت مجهزة من كل الجوانب كأنها كانت مهيئة لاستقبال أحدهم، لا هي بالغرفة الفاخرة ولا هي غرفة متردية الحال، لائقة بين ذلك، جلس علي على السرير بعد أن دعته أروى لذلك وبعد أن وضع القيتار جانبًا وهي تفتش في أحشاء الخزانة تجمع في يديها مجموعة من الثياب، أغلقت الخزانة واستدارت إلى علي وجلست قربه واضعة تلك الرزمة من الثياب بينها وبينه وقالت له:

_يا بني نحن في هذه الحياة نعيش على أرض واحدة لكننا لا نعيش في عالم واحد، فهناك من يرى الحياة بنفسجية وهناك من يراها سوداوية وآخر يراها بيضاء ناصعة، كل يراها باللون الذي يسود عالمه، يا بني

إنـــي لا أعـــرف عنـــك شـــيئًا ســـوى أنـــك مهـــاجر ألقـــت بـــك الأقـــدار هنـــا وإنـــي لمـــا رأيتـــك لأول مـــرة كـــأني رأيـــت ولـــدي الـــذي فقدتـــه منـــذ ســـبع سنوات تقريبًا.

علي متأسفًا:

_رحمه الله.

أروى: وإنك أكثر شبه به.

قال لها علي باعتقاده:

_والله يخلق من الشبه أربعين.

تبسمت وقالت:

_مـــن غيـــر الممكـــن أن يتشـــابه جميـــع البشـــر فـــي أجســـادهم لكـــن بمقـــدورهم أن يكونـــوا أكثـــر شـــبه فـــي رحمـــتهم وإنســـانيتهم وفـــي حـــبهم لبعضهم البعض.

تدبر علي في قولها وقال بصوت هادئ خافت:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_صدقتِ، هذا هو الشبه الذي من الأجدر أن يعم جميع الناس والوجه الروحي الفريد الذي يجب أن يتوفر في كل واحد منهم.

شخصت أروى ببصرها في رزمة الثياب وقد وضعت يمناها عليها وقالت:

_هذه الثياب كل ما تبقى من ذكرى ولدي العزيز الراحل، أهديك إياها عسى أن تكون في مقاسك.

استغرب وتعجب بل وأخذ عليا شعور مختلف ألوانه حتى أنه عجز عن الكلام لبرهة ثم قال لها كلمات مبعثرات بصعوبة:

_لكن، الذكرى، ولدك.

أروى: لا عليك يا بني فإن ذهاب هذه الثياب لن يذهب من قلبي ذكرى ولدي أبدًا، خذها فأنت أحوج إليها من غيرك.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

استلمها علي من يديها شاكرًا وهو ينظر إلى عينيها كيف تترقرقان بالدمع حزنًا على ولدها الذي فقدته منذ سبع سنوات فكيف عن أمه التي اِفتقدته البارحة، قامت تمسح الدمع عن عينيها وتغلق الخزانة حتى دخلت جايدن عليهما وهي في قمة فرحتها قائلة لهما:

_الطعام جاهز يا سادة، هيا إلى المائدة.

قال لها علي بوجه يحاول التغلب على خجله:

_أيمكنني أن أستحم قبل ذلك؟

قالت له وقد أطلقت ضحكة اعوج منها خصرها:

_نعم يمكنك يا علي، يوجد حمام هنا قرب غرفتك يمكنك استعماله متى شئت.

علي في استغراب:

_غرفتي!؟ متى كان ذلك وكيف؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

جايـدن: إن جـدتي قـد سـمحت لـك أن تقـيم هنـا بـدلًا مـن غرفـة الخـردوات تلـك حتـى تتعـافى بالكامـل وتسـترجع طاقتـك وحتـى تجـد مقامًـا تقيم فيه.

علـي فـي ابتسـامة عريضـة ووجـه مشـرق يقول بصوت هادئ:

_شكرًا، شكرًا، شكرًا جزيلًا لكم جميعًا.

جايدن مبتسمة:

_لا عليك نحن في انتظارك على مائدة العشاء.

وانصـرفت مسـرعة تتبعهـا أروى فـي جـو مفعـم بالتفـاؤل والإيجابيـة، بعـد أن اسـتحم علـي وأزال كـل مـا كـان عليـه مـن تعـب ونصـب مرتـديًا مـن الثيـاب التـي أهـدتها لـه أروى لباسًـا أزرق سـماوي خـاص بـالنوم، نـزل إلـى مائـدة العشـاء حيـث يجتمـع الكـل هنـاك يعـد

الـــدرج وهـــو يحمـــل القيتـــار فـــي يـــده، لـــم يكـــن هنـــاك داع أو ســـبب واضـــح كـــي يحضـــر معـــه القيتـــار، أحيانًـــا يقـــوم المـــرء بأفعـــال وتصـــرفات قـــد لا يملـــك فيهـــا حيلـــة أو لـــيس لـــه تعليـــل فـــي ذلـــك كـــأن مـــا يقـــوم بـــه كلحظـــات قـــدر مـــرت عليـــه، كانـــت تـــراه الجـــدة وهـــو يحمـــل القيتـــار كأنـــه زوجهـــا الفقيـــد الســـيد جـــورج، وكانـــت تـــراه أروى بثيابـــه كأنـــه ولـــدها الفقيـــد، أمـــا جايـــدن فكانـــت تـــراه بابتســـامته كأنـــه ذلـــك الفقيـــد العائـــد إليهـــا، مـــا أجمـــل أن يـــرى الإنســـان فـــي غيـــره مـــن يحـــب أو يـــرى فيـــه الحـــب نفســـه، جلـــس علـــي بجانـــب جايـــدن بعـــد أن وضـــع القيتـــار فـــي أحـــد الكراســـي القريبـــة منـــه وهمـــا وجـــه لوجـــه مـــع الجـــدة وأروى، ألقـــى ببصـــره فـــي المائـــدة فهـــي أشـــكال مـــن الأطبـــاق

والصحون والمشروبات، لم يكن له فكرة كاملة عما يتناوله الإسبان من أطعمة فهو بالأحرى معتاد على الأطباق الجزائرية كالكسكسي والشوربة والشخشوخة، أما عن ما يراه أمامه فهو حقًا لا يملك فكرة عنه، نظرت إليه جايدن نظرة عارف لحاله فراحت تخبره وتطلعه على نوع الطعام الذي أمامه كما أن أروى هي الأخرى راحت تخبره وتطلعه على أنواع الأطعمة التي يتناولها الإسبان والأكثر شهرة لديهم كما أخبرته أيضًا عن الأطعمة التقليدية، وهنا علي انتهز الفرصة وباشر الأكل مستعينًا بالشوكة والسكين، كما أطلق لسانه مخبرًا ومبينًا هو أيضًا عن أنواع الأطعمة الجزائرية المتعددة، وهم في غمرة الكلام

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

ولــذة الحــوار وتبــادل المعــارف حتــى تقــاطعهم الجــدة وهــي الأقــل إتقانــا للإنجليزيــة مخاطبــة عليًا بالإسبانية التي لا يفهم منها كلمة قط:

_أيُعجبك الطعام يابني؟ أهو لذيذ؟

نظــر مباشــرة إلــى جايــدن ينتظــر أن تتــرجم لــه كــلام الجــدة حتــى هــي تلفــق فــي الترجمــة كلامــا غير ما قالته الجدة وهي تتظاهر بالجدية:

_نعــم تقــول لــك جــدتي إنــك تبــدو أكثــر وســامة وإشراقًا من الصباح.

نظــر علــي إلــى الجــدة وقــد أخــذ ابتســامة عريضــة ملفوفــة بالخجــل ونظــر إلــى أروى فــإذا هــي قــد انفجــرت بالضــحك تتلوهــا جايــدن فــتفطن علــي أنــه قــد حــدثت فبركــة فــي الترجمــة فنظر إلى جايدن وقال لها ضاحكًا:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_أظنه من الواجب لي تعلم الإسبانية في أقرب وقت حتى أستمتع بسماع المغازلات من الجدة.

فضحكوا جميعًا وهم يتناولون طعام العشاء في فرح وسرور، تقول الجدة أنه قد مر وقت طويل لم تعش فيه مثل هذه اللحظات الباسمات، وكذلك مر وقت طويل لم يشهد البيت فرحًا وبهجة وسرورًا، نظف علي يديه من الطعام بالمنديل ومسح على فمه، سألته جايدن أن يتناول المزيد من الطعام قائلة له:

_تناول مزيدًا من الطعام يا علي فأنت لم تأكل من هذا الطبق.

وقد همت تقرب له ذلك الطبق، فقاطعها قائلًا مستلمًا الطبق منها:

_شـــكرًا لـــك لقـــد تناولـــت الكثيـــر والحمـــدلله، لكننـــي ســـآكل منـــه شـــيء مـــا، فـــلا يمكننـــي أن أرفض لك طلبًا.

نظـــرت إليـــه جايـــدن بعـــين ناعســـة وابتســـامة خاطفـــة، بينمـــا اِعتـــذرت الجـــدة لعلـــي لمـــا بـــدر منهـــا لحظـــة لقائـــه ومعرفتـــه لأول مـــرة فهـــي كانـــت تعتقـــد أنـــه إنســـان همجـــي عنيـــف لا يفقـــه عـــن الرحمـــة والرأفـــة شـــيئًا، فقـــال لهـــا وقـــد قبـــل اعتذارها:

_لا بـــد أن يكـــون الخطـــأ أحيانًـــا لنعـــرف الصـــواب، ولا عيـــب أن يكـــون الخطـــأ بـــين الإخـــوة، وإنمـــا العيـــب فـــيهم إذ يعرفونـــه ويضـــلون متشـــبثين بـــه غـــرورًا وحماقـــة وفـــي أغلـــب الأحيـــان يكـــون جهـــلًا تركبـــه مشـــاعر شـــيطانية فـــي الـــنفس، فـــلا يجنـــون مـــن ذلـــك

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الخطـــأ إلا الخطايـــا والـــذنوب والتفرقـــة والكـــره وكـــل مـــا يريـــده الشـــيطان أن يكـــون بـــين بنـــي البشر.

تراجـــع علـــي بكرســـيه بقـــدر قـــدم ثـــم ضـــم القيتـــار إلـــى صـــدره وهـــو ينظـــر إلـــى الجـــدة مبتســـمًا فـــي إشـــارة منـــه إلـــى أنـــه يريـــد إلقـــاء أغنيـــة عليهـــا فسُـــرَّ الجميـــع بـــذلك، وبـــدأ العـــزف للحظـــة ثـــم توقـــف بعـــدما شـــعر بـــدُوار خفيـــف ليســـتأنف العـــزف علـــى القيتـــار مـــرة أخـــرى متكلفًـــا، تفطنـــت جايـــدن لحالـــه فـــرأت أنـــه مـــن الأحســـن أن يأخـــذ قســـطًا مـــن الراحـــة، غمزتـــه جايـــدن بخطفـــة عـــين وابتســـامة مـــرت كلمـــح بالبصـــر، فأعـــاد علـــي القيتـــار علـــى الكرســـي الـــذي كـــان عليـــه معتـــذرًا مـــن الجميـــع بالانصـــراف إلـــى غرفتـــه بقســـمات وجـــه ذابلـــة

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

وعين ناعسة وصدر لا يعرف قدر الهم الذي يحمله سوى تنهيدة منه أبانت عن ضيق وحرج وكرب، قام من مكانه متثاقل الحركات، مشوش الذهن، يغشى عينيه طائف من التعب وهو يسحب كرسيه إلى الطاولة يعيده لموضعه وإذا جايدن تُمسك عنه الكرسي تعينه على حاله وهي تنظر إليه بنظرة أم رؤوم، أمٌّ ولكنها لم تنجب ولدًا قط، ومتى كان إنجاب الأطفال معيارًا للأمومة؟ إنما الأمومة حين تنجب المرأة من جمال أنوثتها الصادقة الصافية النقية مشاعر اللطف والحنان والرأفة لتنبت الأمن والسلام في القلوب الخائفة، وتجري الأمل بالبقاء في العقول اليائسة، وتحيي روح الحياة، تلك الحياة البائسة التي يعيشها

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الآلاف مـــن اليتـــامى المنبـــوذين فـــي الجهـــة المظلمة من هذا العالم.

★★★

الفصل الرابع

(ليلة في الغربة)

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

حمـــل علـــي القيتـــار بعـــدما ودع الجميـــع وأبقـــاهم علـــى خيـــر وراح يصـــعد الـــدرج متوجهًـــا إلـــى غرفتـــه فـــي الأعلـــى بخطـــوات ثملـــة، دخـــل غرفتـــه بعـــدما خلـــع نعليـــه وأغلـــق البـــاب ووضـــع القيتـــار جانـــب مكتـــب خشـــبي كـــان متكئًـــا علـــى الجـــدار وبمقربـــة مـــن ســـرير نومـــه ثـــم ســـحب ســـتار النافـــذة يمينًـــا وقـــام بفتحهـــا بالكامـــل فقـــد كـــان الجـــو حـــارًا بعـــض الشـــيء، نظـــر نظـــرة فـــي النجـــوم ثـــم عـــاد واســـتلقى بظهـــره علـــى ســـريره وأغمـــض عينيـــه وهـــو يأخـــذ نفسًـــا عميقًـــا إلـــى داخـــل صـــدره ليغيـــب بعـــد لحظـــات عـــن وعيـــه ويغـــط فـــي نـــوم عميـــق، يمينًـــا ويســـارًا يتقلـــب علـــي فـــي ســـريره وأحيانًـــا ينقلـــب علـــى بطنـــه، مـــرت حـــوالي ســـاعتين أو أكثـــر مـــذ أغلـــق عينيـــه، وهـــا هـــو الآن يفتحهمـــا والســـاعة قـــد

تجـــاوزت منتصـــف الليـــل، وهـــا هـــو يحـــرك مقلتيـــه يمينًـــا وشـــمالًا دون أيـــة حركـــة لجســـده يتأمـــل فـــي ســـقف الغرفـــة الـــذي بالكـــاد يـــراه لـــولا ضـــوء القمـــر الـــذي كـــان يتســـلل مـــن النافـــذة، بـــدأ العـــرق ينـــزل مـــن علـــى جبينـــه لا لأن الجـــو حـــار لتلـــك الدرجـــة وإنمـــا هـــي تلـــك التخـــيلات والمشـــاهد والصـــور التـــي كانـــت تنتابـــه، ذلـــك الليـــل المظلـــم العـــاتم وتلـــك الأمـــواج العاليـــة المتلاطمـــة المخيفـــة، تلـــك الأصـــوات الرهيبـــة، تلـــك الاســـتغاثات الضـــعيفة، وتلـــك الفوضـــى والهلـــع الـــذي عاشـــه ليلـــة البارحـــة علـــى القـــارب هـــو وأصـــحابه ثـــم تـــذكر أنـــه عـــاش هـــو أمـــا البقيـــة الـــذين كـــانوا معـــه فـــلا شـــيء يـــدل علـــى أنهـــم علـــى قيـــد الحيـــاة، قـــد شـــاء الله أن يحيـــا هـــو ويموتـــوا هـــم_لا أدافـــع عـــن أحـــد ألقـــى

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

بنفسه في خطر الهلاك لكنني أثبت أحقية القدر_ولازال علي في تقلباته الجسدية والروحية ولازال يسترجع ما حصل له مع جايدن والجدة وأروى حتى يهدأ قليلًا ويشعر ببعض الراحة حين يرى ابتسامة جايدن وهي مرسومة على سقف الغرفة لتميل إلى الجدار وقد تحولت قسمات وجهها إلى وجه أمه الضاحك ثم إلى أوجه أخواته وجه فوجه، فتراه يبتسم مرة ويبكي مرة أخرى، ما أصعب أن يصارع الإنسان مشاعره، فقد تقتله ذكرى مضت عليه، كما قد يحييه موقف عاشه، هذا هو الإنسان كتلة غنية بالمشاعر، ولو كنا نراعيها فيه لما تأذى على وجه الأرض إنسان سحب علي نفسه من على السرير مفارق وسادته

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

ثـــم وقـــف لـــدى النافـــذة يتأمـــل فـــي الســـماء الصـــافية والقمـــر المنيـــر والنجـــوم المتنـــاثرة المضـــيئة، وهـــو الآن يفكـــر كيـــف ســـيتحرك فـــي هـــذه الـــبلاد التـــي لا يعـــرف شـــيئًا عنهـــا وعـــن مـــدنها وأهلهـــا وطريقـــة عيشـــهم وكيفيـــة تفكيـــرهم لكـــن وجـــب عليـــه التحـــرك بطريقـــة أو بـــأخرى وإيجـــاد شـــغل أو عمـــل يســـد بـــه حاجاتـــه الطبيعيـــة والبحـــث عـــن مـــأوى يبيـــت بـــه فهـــو يحـــس أن الإقامـــة عنـــد الجـــدة كعـــبء علـــى أكتافهـــا وأن لجايـــدن دراســـة ومشـــوار حيـــاة طـــامح هـــادف أكبـــر مـــن أن تقضـــيه مـــع مهـــاجر غيـــر قـــانوني لا يـــدري وجهتـــه مـــذ ألقـــت بـــه أمـــواج القـــدر علـــى شـــاطئ هـــذه الأرض، عـــاد علـــي واســـتلقى علـــى ظهـــره وقـــد أخـــذ نفسًـــا عميقًـــا مـــرة أخـــرى وليغيـــب عـــن هـــذا العـــالم

المرئـــي ويســـافر بروحـــه إلـــى عـــالم الأحـــلام والأمـــاني حيـــث يحقـــق هنالـــك كـــل شـــيء يطمـــح إليـــه، عنـــدما يصـــعب الواقـــع علـــى الإنســـان فإنـــه يلجـــأ إلـــى الأحـــلام والأوهـــام يســـتأنس بهـــا ويخفـــف مـــا عليـــه مـــن اليـــأس والفشـــل وهروبًـــا مـــن ذلـــك الإرهـــاق النفســـي القاتـــل، مـــرة أخـــرى يـــوقظ الأرق عليًـــا ويحرمـــه مـــن النـــوم، حمـــل نفســـه واتجـــه إلـــى الحمـــام، فـــتح الحنفيـــة ونضـــح المـــاء علـــى وجهـــه وراح يدلكـــه ويمســـح علـــى عينيـــه، ليأخـــذ بعـــدها شـــهيقًا وزفيـــرًا وينظـــر إلـــى المـــرآة متمعنًـــا فـــي حالـــه لبرهـــة مـــن الـــزمن ثـــم أغلـــق الحنفيـــة وعـــاد إلـــى غرفتـــه وشـــغل الإضـــاءة وراح يتأمـــل فيمـــا حولـــه وقـــد وقـــع نظـــره علـــى المكتـــب الـــذي كـــان فـــي الغرفـــة، فســـحب كرســـيه وجلـــس يتكـــئ

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

بساعديه عليه لينتبه بعدها لدرج كان قد لامسه بركبته، قام بفتحه فإذا بعض الأغراض مرتبة داخله كأوراق ودفتر وألبوم صور وأشياء تعنى بالمكتب، لم يكن لعلي الفضول لتفتيش جميع الأغراض ومعاينتها بعدما أخذ منها دفترًا وقلم وبدأ الكتابة، كتابة كل ما يشعر به أنذاك، ليتنا نكتب ما نشعر به ونشاركه مع الآخرين كما نكتب أفكارنا ونشاركها غيرنا، هذا العالم محتاج إلى الشعور كما يحتاج إلى التفكير، فالشعور بالآخر هو من أنجح الحلول لقضايا العالم الشائكة وأفضل الموارد التي يستفيد منها الإنسان لبناء مجتمعه ومدينته ومجده وامتداد أجياله، ضل علي يكتب السطر تلو السطر، الصفحة تلو الأخرى، قد

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

كان شعورًا كثيرًا كثيفًا في أول ليلة له في الغربة، ليضع القلم بعد ذلك ويمسح على عينيه تعب التركيز وعن قلبه غشاوة اليأس والكآبة مستبشرًا بغد أبيض اللون، مورد الساعات، دقيق الدقائق، شمسه باردة في الظهيرة، وسماءؤه صافية ضاحكة في وجه كل من يراها، غد يمحو ما قبله من ذكريات أليمة، غدًا يقرأ صفحة جديدة من كتاب القدر، صفحة بيضاء بل ناصعة البياض ترى بعين الأمل والتفاؤل.

★★★

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الفصل الخامس

(اصطدام غير مباشر)

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

حـــل صـــباح اليـــوم الثـــاني باشـــراقة شـــمس جميلـــة مفعمـــة بالنشـــاط والحيويـــة تبـــث مـــن حرارتهـــا مشـــاعر القـــوة والرغبـــة فـــي الاســـتمرار، الاســـتمرار فـــي طريـــق الحيـــاة، وتنســـج مـــن خيوطهـــا الذهبيـــة ســـرابيل التفـــاؤل وتفـــرش مـــن إشـــعاعها ســـجاد الأمـــل، يســـتيقظ علـــي بعينـــين فيهمـــا مـــن بريـــق الجمـــال لمحـــة مـــن روح صـــافية صـــادقة، انتقـــى علـــي مـــن الأثـــواب التـــي أهـــدتها لـــه أروى قميصًـــا ابـــيض اللـــون علـــى جهتـــه الأماميـــة كتابـــات بـــاللون الأســـود قـــد كتبـــت باللاتينيـــة وســـروال أســـود داكـــن، كـــان واســـعًا عليـــه نوعًـــا مـــا لكنـــه يفـــي بـــالغرض، جهـــز علـــي نفســـه واســـتعد ليـــوم جديـــد، نـــزل إلـــى الطـــابق الأرضـــي حيـــث مائـــدة الطعـــام هنـــاك وأروى تجمـــع الصـــحون منهـــا،

كـــان الجميـــع قـــد تنـــاول فطـــور الصـــباح الا هـــو، مـــن الطبيعـــي فالســـاعة قـــد لمســـت العاشـــرة صـــباحًا، نظـــرت أروى إلـــى علـــي مبتســـمة قائلـــة له:

_صباح الخير، أتمنى أنك قد قضيت ليلة مريحة؟

ليجيبها قائلًا:

_صـــباح الخيـــر، نعـــم كانـــت ليلـــة لا بـــأس بهـــا، ارتحت بعض الشيء.

تقول أروى وهي تجمع ما على الطاولة:

_تفضل بالجلوس، سأحضر لك الفطور.

يجلس علي في تكاسل وهو يقول:

_ماذا عن الجدة وجايدن؟

أروى: لقـــد تنـــاولا الفطـــور قبلـــك، لـــم تـــرد جايـــدن ايقاظـــك مـــن نومـــك، والجـــدة كعادتهـــا في الخارج مع لوحاتها الفنية.

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

علي: وجايدن؟

أروى: ذهبت إلى بيت والديها، قالت أن لها أمورًا تود أن تقضيها هناك لتعود في المساء.

علي في هدوء:

_لا بأس.

أروى: نعم، سأحضر لك الفطور لتتناوله.

بعد أن تناول علي فطوره خرج يجر نعليه تكاسلا من المنزل لتلاقيه الجدة وهي تجمع أغراضها، سألها:

_هل هنالك مشكلة؟

بصعوبة تفهم الجدة كلامه بالإنجليزية لتجيبه ضاحكة:

_كلا يابني، أريد تغيير موضعي.

استغرب علي لذلك وقال لها:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_أليس سواء؟

الجدة: كلا، للأماكن أسرار كما يقال يا بني، فقد يلقى الإنسان راحته في أمكنة قد لا تبدو جميلة أو اجتماعية بشكل ملفت، كل له موضع على هذه الأرض يجد فيه ضالته وراحته ومسقره بل حتى بقية حياته.

علي في شرود:

_نعم.

الجدة وهي تشير بيدها إلى علي:

_اتأتي معي لتقضي بعض الوقت؟

علي: بكل سرور.

انطلق علي مع الجدة يسيران مبتعدين عن المنزل لأمتار بل لعشرات الأمتار يسبحان في جمال الطبيعة من صفرة الحقول التي تغطي الأرض على امتداد البصر وتموج

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

التضـــاريس، وأشـــجار متراميـــة المســـافات يتفـــاوت طولهـــا وحســـنها مـــن شـــجرة لأخـــرى، ومنـــازل متباعـــدة، منـــزل هنـــا وآخـــر هنـــاك، وجبـــال وهضـــاب هنالـــك بطولهـــا وشـــموخها تـــدعو العيـــون لتنظـــر والقلـــوب لتتـــدبر فـــي جمـــال خلـــق الله، توقفـــت الجـــدة عنـــد رابيـــة منخفضـــة كأنهـــا منحـــدر ســـهل وأخـــذت تجهـــز لوحتهـــا وأغـــراض الرســـم لـــديها، جلـــس علـــي علـــى الأرض ممـــددًا يديـــه إلـــى الخلـــف باســـطًا رجليـــه إلـــى الأمـــام يتأمـــل فـــي ســـحر الطبيعـــة مستنشـــقًا هواءهـــا، تائـــهً فـــي خلجـــات نفســـه حـــين تـــذوب فـــي الهـــدوء، مـــا أجمـــل الهـــدوء فـــي الإنســـان إذ يـــذكره بطبيعتـــه الحقيقـــة بعيـــدًا عـــن ضـــجيج القلـــق ونوبـــات القلـــب وصـــداع الـــرأس، كـــل هـــذا الجمـــال والهـــدوء هنـــا عكســـه هنـــاك فـــي

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

مدريد حيث تتعالى الأصوات بين جايدن ووالدها حين علم بقصة علي المتعصب المتوحش الإرهابي في نظره، موبخًا جايدن على فعلتها التي فعلتها وقلة عقلها، واصفًا إياها بالمراهقة اللاواعية لما يدور حولها، القاصرة في تفكيرها، الساذجة في أفعالها، وكل وصف إن شئت تذكره في اللامسؤولية، وبخاصة أن والدها أستاذ وباحث في علم الاجتماع فهو يحكم حسب معرفته لا حسب تجربته، ربما يبدو لي ذلك لأنك أن تحكم على انسان بالشر وانت لم تره قط فهذا بحد ذاته ضرب من الحمق والسذاجة والقصور، جايدن الشابة البريئة والنقية الروح تدافع عن علي وتحاول أن تقنع والدها بأنه شخص لطيف وإنساني

لكـــن والـــدها لا يصـــدقها بـــل لا يحـــاول أن يفهمهـــا، وإنـــك لتعجـــب مـــن هكـــذا بشـــر وتصـــرفاتهم رغـــم أنهـــم مـــن الطبقـــة المتعلمـــة المثقفـــة، يظهـــر لـــي أن الأمـــر لا يتعلـــق بكـــون الإنســـان متعلمًـــا ومثقفًـــا بـــل يتعلـــق بكـــون الإنسان إنسانًا بحد ذاته، سألها والدها:

_وأين ذلك المتعصب الآن، ألا يزال عند جدتك؟

جايدن: نعم، لازال في منزل جدتي.

الوالد وهو يهم بالخروج في حال ثائرة:

_حسنا إذا.

جايدن: إلى أين يا أبي؟

الوالد غاضبًا:

_أمر لا يخصك.

ثـــم ركـــب الســـيارة وانطلـــق مســـرعًا، شـــعرت جايـــدن بـــالخوف والقلـــق لمـــا ســـيفعله والـــدها

لعلي فهو لا ينوي على خير أبدًا، حاولت الاتصال بأروى من الهاتف لكن بلا جدوى، فأروى مشغولة بترتيب المنزل وإعداد الفطور ولا تسمع لنغمة اتصال الهاتف، فتضاعف قلق جايدن وزادت حيرتها لكنها رأت من اللازم أن تذهب لمنزل جدتها لتعايش الأحداث بنفسها هناك، فهي ترى بأنها المسؤول الأول على ما سيحدث لعلي من أمر لا خير فيه، كما أنها تلوم نفسها إذ أخبرت والدها بقصة علي وهي تعرف طبيعته القاسية مع الناس، حقًا جايدن في مأزق كبير، لم تكن تريد إلا أن توسع فوهة العالم لعلي ودمجه في محيطها وإدخاله لعالمها الإنساني، حيث الكل سواء، سواء في كونهم بشرًا لا أكبر ولا أصغر من ذلك،

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

بعد مدة تقارب الساعة أو أكثر أعادت أروى الإتصال بجايدن، وجايدن تمسك الهاتف وهي في أوج خوفها وقلقها لما ستسمعه من أروى، مسحت بيدها على أيقونة الرد في الهاتف فإذا أروى تتحدث معها:

_الو جايدن، كيف حالك بنيتي؟ أأنت بخير؟

جايدن في تلعثم:

_ما الذي حصل؟

أروى في استغراب:

_ماذا تقصدين يا بنيتي؟

جايدن: ماذا حصل هناك، ماذا صنع أبي مع علي؟

أروى في تعجب: والدك! علي!، لا، لم يحضر والدك إلى هنا يا بنيتي.

جايدن: حقًا؟ حمدًا لله، اسمعي يا أروى عليك إخبار جدتي بالأمر.

أروى: وأي أمر؟

جايدن: أخبريها أن أبي قد سمع بقصة علي وهو غاضب بشدة وقد عزم على المجيء عندكم وهو لا ينوي على خير أبدا.

أروى في ذهول:

_ولكن لماذا؟ حسنًا سأخبر السيدة روزا بالأمر.

جايدن: بسرعة يا أروى.

أروى: حسنًا، شكرًا.

وأقفلت الهاتف وخرجت من المنزل إذا بالجدة وعلي ليسا قربه، استاءت أروى وتأففت وراحت تبحث عنهم في الجوار إذا بها تلمح السيارة التي كانت تأتي بها جايدن تتبعانها سيارتين للشرطة، نعم لقد فعل الأب فعلته وأحضر الشرطة للقبض على علي، سكنت أروى في مكانها وقد شخصت عيناها

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

فـــي الســـيارات القادمـــة نحـــو المنـــزل، هـــل كـــان عليهـــا أن تكـــون أول مـــن يـــرى هـــذا المشـــهد؟ وأول مـــن يعـــيش هـــذه اللحظـــات مـــن القـــدر؟ هـــل كـــان مكتوبًـــا عليهـــا أن تفقـــد ابنهـــا للمـــرة الثانيـــة؟ ربمـــا! ومـــن يمنـــع أو يـــرد القـــدر؟ توقـــف الوالـــد بســـيارته وتوقفـــت بقربـــه ســـيارتا الشـــرطة القـــادمتين معـــه، ليترجـــل والـــد جايـــدن مســـرعًا مـــن الســـيارة متجهًـــا نحـــو أروى ومالبـــث أن وصـــل إليهـــا حتـــى نزلـــت فرقـــة الشـــرطة علـــى رأســـها ضـــابط ســـمين نوعًـــا مـــا تتـــدلى كرشـــه أمامـــه، تبـــدو علـــى وجهـــه قســـمات التعجـــرف والغـــرور، ســـأل الوالـــد أروى:

_أين أمي؟

أروى في قلق وتردد وتلعثم:

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

_هنا، هناك، أقصد أنا أبحث عنها.

نظـــر الوالـــد إلـــى أروى باســـتغراب واســـتحقار حتى ظهرت من جانبها قائلة:

_ما الذي يحصل هنا؟

توجه نحوها والد جايدن مسرعًا يسألها:

_أمـــي أيـــن ذلـــك الغريـــب؟ لمـــا ســـمحت لـــه بـــدخول منزلـــك؟ بـــل وكيـــف كـــان لمثلـــه أن يبيـــت عندك؟

قاطعته الجدة قائلة:

_ألـــم تـــتعلم كيـــف تلقـــي التحيـــة علـــى أمـــك؟ ألـــم تـــتعلم كيـــف تكـــون إنســـان لحـــد الآن؟ بشـــرًا كسائر البشر؟

الوالد في دهشة:

_أنت تقولين لي هذا الكلام يا أمي.

الجدة: نعم، بل وأكثر.

الوالد في غضب:

_حسنا إذا أين هو ذلك الغريب اللقيط؟

الجدة في هدوء:

_إذا كان هناك غريب هنا فهو أنت.

استدار الوالد نحو ضابط الشرطة مخاطبًا إياه:

_أنا متأكد أنه يختبئ في المنزل، سيدي الضابط عليكم بتفتيش المنزل، لا شك أنه شخص خطير.

ضابط الشرطة بغرور كبير يصرخ بأعوانه:

_فتشوا المنزل واعثروا على هذا الخنزير، هيَّا.

وما أكمل كلامه إلا وفرقة الشرطة تحاصر المكان وتقتحم المنزل وتفتش فيه بحثًا عن علي ليتم القبض عليه، أمّا علي فقد كان أخبر الجدة أنه سيقوم بترتيب غرفة الخردوات ومحاولة تنظيفها وترميمها لكي

يقضي بعض الوقت في العمل بدلًا من الجلوس والتفكير الذي لا طائل منه، وبينما الشرطة تحيط المنزل وتفتشه، شعر علي بحركة رجال الأمن وسمع أصوات هواتفهم اللاسلكية، اقترب من الباب وراح ينظر من أحد شقوقه ليرى واحد منهم يجول في المكان، أتم غلق الباب ببطء بعدما كان شبه مغلق لكي لا تشك الشرطة في أمره، انتابته نوبة من القلق والخوف وهو يعرف ان الشرطة تبحث عنه لا عن غيره، فالمنطقة متباعدة السكان ولا منزل يقرب منزل الجدة، تشوش تفكيره ولم يعلم بالضبط ما يحدث، وما يحصل عند الجدة أن فرقة الشرطة لم تعثر على علي، ووالد جايدن مستاء للغاية وهو يحاول إقناع الضابط أن

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

في المنزل شابًا إفريقيًا مجرمًا لكن الضابط اكتفى بالصمت والنظرات الدالة على الغضب والإستياء ثم دعا الفرقة للذهاب وهو يقول لوالد جايدن:

_على أية حال إن رأيت الشاب أو سمعت عنه شيئًا فيمكنك الإتصال بنا وتبليغنا بالأمر.

الوالد في حماس ورغبة:

_مؤكد سيدي الضابط، أعدكم بأني سأبلغكم بالأمر وقتما رأيت ذلك الشاب.

والجدة مع أروى تقفان في مشهد لا أقول جيد أو جميل لكنه على الأقل ليس ذلك المشهد الذي كانت تتصوره أروى لما رأت سيارتا الشرطة للوهلة الأولى، بعدما

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

انصـــرفت فرقـــة الشـــرطة جـــاء والـــد جايـــدن إلـــى الجدة يسألها:

_أين هرب ذلك الشاب الغريب يا أمي؟

الجدة في هدوء:

_بـــات ليلـــة الأمـــس هنـــا كـــان متعبًـــا جـــدًا، واليـــوم ذهب في سبيل حاله.

الوالد: إلى أين؟

الجدة: لا أدري.

الوالـــد: حســـنًا علـــى كـــل حـــال، إذا عـــاد مـــرة أخرى أبلغيني يا أمي، اتفقنا.

الجـــدة: أنـــا لا أتفـــق مـــع أحـــد مهمـــا كـــان فـــي إلحاق الأذى بإنسان بريء.

الوالد وقد هم بالكلام:

_لكنه يا أمي

تقاطعه الجدة قائلة:

_يكفي، سمعت من الأذى ما يكفي.

واستدارت متجهة نحو باب المنزل وهي تدعو أروى لإعداد مائدة الفطور، عرف والد جايدن أنه غير مرحب به عند الجدة وهو يشعر بالإحباط إذ تم تفتيش منزل أمه دون القبض على علي، ركب سيارته وانطلق مسرعًا بعيدًا عن المنزل، بعيدًا عن البشر، بعيدًا عن علي، بعد دقائق من ذهاب الوالد وابتعاده عن المنزل، خرجت الجدة وأروى معًا تتأكدان من ذهاب الوالد وابتعاده عن المنزل لتهمّا إلى غرفة الخردوات حيث يوجد علي لتطمئنا على حاله، وما إن وصلتا ودخلتا الغرفة إذا بهما تجدان الغرفة خاوية على عروشها وليس لعلي أثر فيها، تعجبتا من ذلك فخرجتا

وراحتا تبحثان عنه بجوار المنزل لكن لا أثر لعلي.

★★★

كثيرٌ من الأشياء تدعونا للرحيل أحيانًا والإبتعاد عمن نحب من أجلهم لكي يعيشوا بأمان واستقرار، صحيح أنَّ الأمر يكون قاسيًا للوهلة الأولى لكنه سرعان ما يخفت ويضمحل في صحراء الوقت، ذلك أننا نرغب أن نعيش كما نريد ونتجاهل قوة وسلطة القدر علينا، نحن أحرار وأكثر قناعة بالحرية عندما نؤمن بالقدر خيره وشره.

★★★

عادت الجدة وأروى وجلستا بالقرب من المنزل، تساءلت أروى:

_إلى أين يكون قد ذهب؟

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

الجدة: لا أدري لكن أظن أن هذا المكان لم يعد آمنًا له.

من طبيعة الإنسان أن يعيش في الأمان لكونه كائنًا خلقه الله عز وجل مستقرًا هادئًا، يحب السلام والأمان وله الرغبة بل كل الرغبة أن يحيا حرًا بعيدًا عن قيود العبودية والشر اللذان يسلبانه حريته.

وهما يتبادلان أطراف الحديث والتساؤل عن أمر علي على طريق الوقت حتى توقفت سيارة أجرة قربهما لتنزل منها جايدن مسرعة قلقة تهم نحوهما، لم تفرح الجدة وأروى بقدومها، سألتهما عن علي فقصتا عليها تفاصيل ما جرى هناك وأنه لا أثر لعلي الآن، وضعت جايدن يديها أعلى رأسها تتأفف مما حصل، دعتها الجدة لترتاح فأبت وقالت:

_لا يـــا جـــدتي ســـأعود إلـــى المنـــزل وأرى مـــا يمكنني أن أفعله مع والدي.

الجدة: لا تحاولي إقناعه يابنيتي فوالدك متعصب.

نظرت جايدن إليهما وسألتهما:

_متى حصل هذا الأمر؟

أروى: حوالي ساعتين أو أكثر من قدومك.

جايدن وهي تهم لركوب سيارة الأجرة من جديد:

_لا بـــأس، اعتنيـــا بنفســـيكما جيـــدًا، ســـأحاول أن أعـــود فـــي المســـاء، وإن علمتمـــا شـــيئًا عـــن علي فاتصلا بي.

الجدة وأروى معا:

_حسنًا، مع السلامة يا بنيتي.

ثـــم ركبـــت جايـــدن الســـيارة وانطلقـــت، وصـــلت جايـــدن إلـــى منـــزل والـــدها لتلقاهـــا أمهـــا بابتســـامة وكـــلام طيـــب تجبـــر خاطرهـــا

https://www.blogger.com/blog/posts/5081228645872412203

المكسور، سألت جايدن إن كان والدها عاد للمنزل، فأجابتها أمها أنه لم يعد منذ خرج منه، اتجهت جايدن مباشرة إلى غرفتها واستلقت على سريرها وبقربها قطتها الجميلة بيلا، لقد كان متعبًا ما حصل معها، أمسكت بهاتفها تنتظر اتصالًا من أروى، تنتظر خبرًا يزيل كل ألوان التعب عنها، تنتظر بشارة ما فوقها بشارة، وهي في دوامة الإنتظار وتحت سلطة التعب تذهب بها عينها لعالم آخر، لقد نامت.

★★★